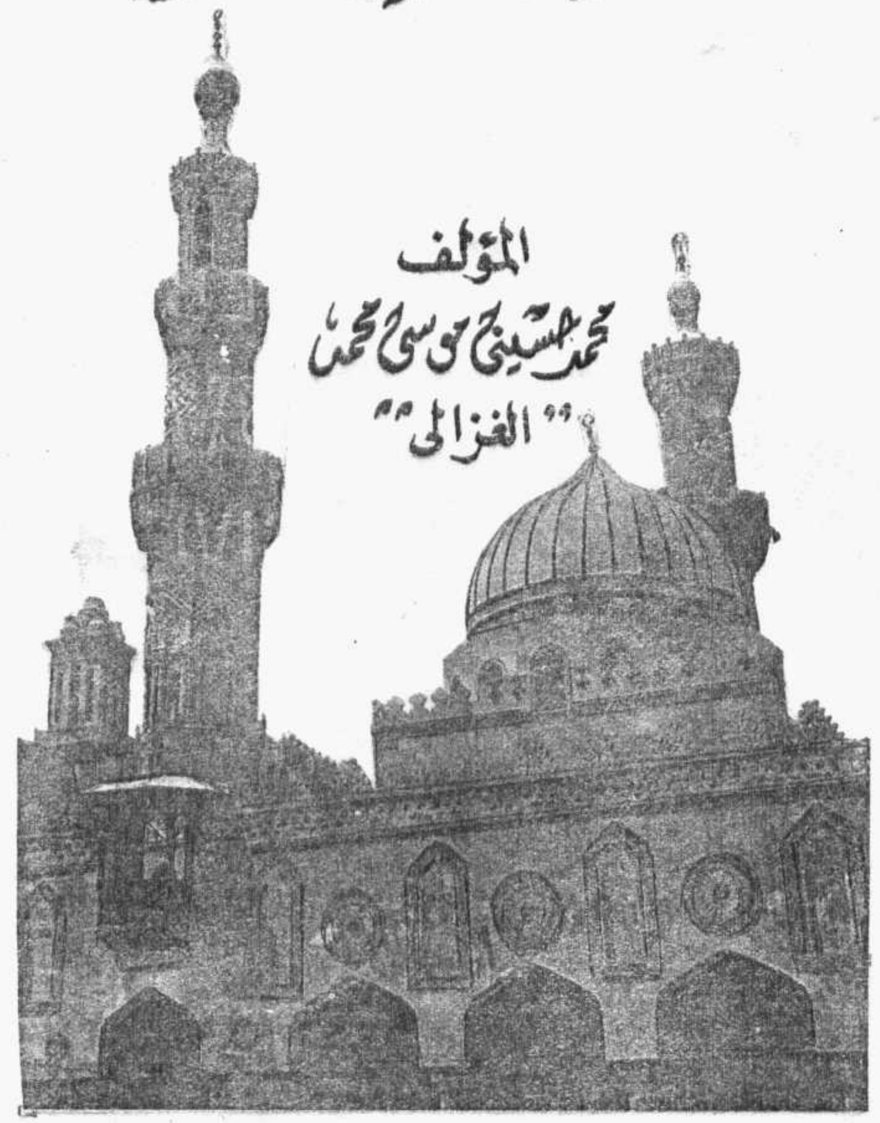
دراسات فى الاسلام

لماذا إنتشر الاسلام

المؤلف

محمد الحسينى موسى محمد

" الغزالى "



الجزء الأول

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م


مكتب كونتنتال بالزقازيق
٧ ش سعد زغلول - منشية أباظة
١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م

المؤلف في سطور



الاسم : محمد حسيني موسى محمد
شهرته " محمد الغزالي "

محل الميلاد : غزالة الخيس ، احدى قرى مركز
الزقازيق ـ محافظة الشرقية
واليها نُسِبَ فقيل " الغزالي "

أعمال المؤلف المعدة للطبع :

أولا : الأعمال العلمية :

١ ـ رفع عيسى عليه السلام ونزوله في المسيحية وموقف الاسلام منهما (جزءان)
٢ ـ قيمة الصراع بين الفلسفة وعلم الكلام .... (جزءان)
٣ ـ لماذا انتشر الاسلام ؟......... (جزءان)
٤ ـ لماذا ينكمش أبناء الاسلام ؟........ (جزء ١)
٥ ـ حلف الفضول عند العرب وأثره في العصر الحديث ... (جزء ١)
٦ ـ ومضات من حياة المسيح والنصرانية .... (جزءان)
٧ ـ الغزاليات في السمعيات .... (جزء ١)
٨ ـ المنطق بين التنظيم والتقنين .... (جزء ١)
٩ ـ عقيدة القضاء والقدر وأثرها على المسلم .... (جزء ١)
١٠ ـ الاسلام والأديان ـ قضايا المسيحية وموقف الاسلام منها (جزء ١)
١١ ـ مناهج البحث بين التقليد والتجديد .... (جزء ١)

ثانيا : الأعمال الأدبية :

أ ـ الرواية :

١ ـ سالمة
٢ ـ المعلم قرني
٣ ـ المتسلط
٤ ـ أقسمت أن أروى ...
٥ ـ لاتدعني انسى
٦ ـ مياسة
٧ ـ وداعا أيها اليأس..
٨ ـ سلطان الغريزة

ب ـ الشعر العربي :

١ ـ ظلال من الفكر .
٢ ـ التائه الغريب

جـ ـ المسرح :

١ ـ وهذا مذهبي .
٢ ـ ثورة الضمير .
٣ ـ المدرس الكشكول .
٤ ـ يابني .. أحفظ دم أخيك الشهيد .

ثالثا : أعمال تحت التنفيـــــذ :

١ ـ الشيخ محمود أبو هاشم الصوفى الشاعر .
٢ ـ الشيخ محمد يوسف موسى وجهوده التوفيقية
٣ ـ الدكتور / محمود قاســم مفكـــرا .
٤ ـ الدكتور / محمد البهى وأثره الفكـــرى
٥ ـ الشيخ / محمد رشيد رضا الحسنى الفيلسوف المفكر .

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

((استفتاح))

قال الله تعالى :-

" بسم الله الرحمن الرحيم "

(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ
يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ
الْخَاسِرِينَ ٠ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ
قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ
الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٠)

صدق الله العظيم

سورة آل عمران : الآيتان ٨٥،٨٦

الاهـــــــداء

إلى :

* الوالدين الكريمين ، رب أرحمهما كما ربياني صـــغيرا .

* زوج جعلها الله لى عونا ، فأدت ما عليها بأمانــــة .

* ابنيّ الحبيبين . حازم ، وبدر الدين . اللهـــــم أنبتهمـــا نباتـــــا حســـــــنا .

* روح أخى فى الله ، صديقى المرحوم الاستاذ الدكتـــور / محمد البوشى عبده رئيس قسم الهستولوجى بكلية الطـــب البشرى بجامعة الزقازيـــق ، اللهم أرحمه ، وبارك فـــى أثـــره ، وأخلفه فـــى أهله وذويـــه يارب العالميـــن .

شكـــر وتنـــويـــه

عرفانا بالجميل ، ومحاولة رد بعضه لذويه فانني أزجي شكري لله رب العالمين أن مـن علي بهذا المؤلف التي اكتمل في لحظات كم كنـت أود أن أهجع فيها بعد اصطبـار وطـول معانـاة ٠

وأتقدم بخالص شكري للأخ العزيز الشيخ الفاضل / عبد الحكيم محمـد حسنين ـ مدرس الحديث المساعد بكلية أصول الدين بالزقازيق ـ رجـل العلم والتقوى الذي باشر مهمة تخريج الأحاديث التي خرجت راجيا المولـى جل وعـلا أن يهبه من فضله ويزيـده من عنـده ٠

ووفاء بالعرفان فاني أشكر الأخ العزيز الأستاذ / محمد كمال حسنـين ـ مدير الحسابات بالوحدة الحسابية لكليتي الآداب والحقوق بجامعـة الزقازيق ـ الذي تكرم بكتابة هذا الكتاب على الآلة الكاتبة ، وكم عاني معـي رغبة في أن يصل الكتاب الى المطبعة آمنا من كل خطأ يختص بـه ٠ فلـه جزيـل الشكـر ٠

من ثم يبقى عزيز على نفسي قريب الى جوانحي بذل من المجهود فـي هذا المؤلف وفي غيره مايحتاج الى أكثر من مجهود الكثيرين ، وكم كانـت أسئلتي الحائرة تجد اجاباتها لديـه ، وكم ضاعف وكم بذل حتى يصـل هـذا المؤلف وغيره الى صورة مثلى ألا وهو الأخ الأستاذ / صبري محمود نجم شومـان ـ سكرتير مكتب عميد كلية أصول الدين بالزقازيق ـ فله مني و أسرته كل شكـر وجزاهم الله جميعا عني ما أعجـز عن الوفاء بـه نحوهـم انه سميع قريـب ٠

المؤلف/ محمد حسيني موسى محمد الغزالي

" بسم الله الرحمن الرحيم "

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، رضى الاسلام دينا للمسلمين ، فقال تعالى :
" الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا " وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، تعالى عن صفات النقص ، واكتملت له صفات الجلال والكمال ، قضى بأن الاسلام وحده هو الدين الصواب المقبول فى الدنيا أتباعه وفى الآخرة ، فقال تعالى " وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ " .

وأشهد أن سيدنا محمدا عبد الله ورسوله ، وصفيه من خلقه وخليله ، أعلن أنه أول المسلمين ، وذلك ما قصه القرآن الكريم فى قوله تعالى " قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ " ، صلى الله عليك وسلم يارسول الله ، يارحمة الله للمكلفين من خلقه وباب الوصول لمعرفته تعالى ، وبارك على أهل بيتك الطاهرين وأتباعك القائمين على شريعة الله إليهم الى يوم الدين .

أما بعد ،

فقد تردت بعض العقليات فى المعاثر ، وحاولت رمى الاسلام بكل ما هو الى نقص عاثر ، فشادت لأفكارها أوهاما ، ولأضاليلها رددت أنغاما ، بينما سقط بعض آخر فى الأوحال ، وساقته الأقدار الى أسوأ الأحوال ، فدفن الجميع أنوفهم فى الرغام ، وكلهم ضلوا بهجومهم على الاسلام ، وما تزال جراحهم تنزف دما ، وقلوبهم تخرج حقدا وحسدا .

وصورت لهم نفوسهم المريضة استمرار مهاجمة المسلمين ، ومحاولة الصاق زميم الصفات بهم وكأن الاسلام (من وجهة نظرهم لعنهم الله) وباء منتشر وراء خطر مستطر ، لذا عبث عقولهم اللئيمة توحي لأقلامهم الذميمة ، تصوير الاسلام والمسلمين بالعنف والتخلف والضعف ، وعملوا بكل جهودهم على نسبة هذه النقائص وتلك الى الاسلام والمسلمين ، مع علمهم أنها أوهام وأضاليل صنعها لهم الوهم ، ونسبها لهم تعصبهم والجهل ، ولم ينالوا من الاسلام ، ولن يصيبوا المسلمين والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ولما كان الباحث في الدراسات الاسلامية ، يواجه صورا عديدة وألوانا شتى من مفاخر الاسلام ومناقب المسلمين ، فقد استخرت الله تعالى أن أبذل مجهودي في بيان أحد مفاخر الاسلام ومناقب المسلمين ألا وهو : " لماذا انتشر الاسلام ؟ " ولمن يكون لي من غرض الا بيان الصورة المثالية التي دفعت الناس الى اعتناق الاسلام ، والدفاع عنه ، والتعلق به ، وهم المسلمون سلوكا وفكرا ، اعتقادا وعملا .

بيد أن هذا الجزء سنقصر الدراسة فيه على نقاط ثلاث :-

أ - النقطة الأولى : الاسلام بين التعريف والدلالة :-

الاسلام بتعريفاته المتعددة ودلالاتها التي تؤدي جميعها الى تبصرة الناس بعظمة الاسلام وبيان جماله . تلك التعريفات ومعانيها جميعا هي التي دفعت الكثير من الناس الى سرعة الاعتقاد في الاسلام واعتناقه .

ب - النقطة الثانية : الاسلام وحرية العقيدة :-

وفيها توضيح لبعض جوانب العظمة في الاسلام ، ألا وهو حرية الناس في اختيار العقيدة التي يتبعونها ، ثم يحاسبون فيما بعد على ما اعتقدوه بعقولهم وما اقترفوه بجوارحهم وما استقر بنواياهم ، وبيان موقف القرآن الكريم والسنة

المطهرة من ذلك كله وأن الاسلام لم يجبرا أحدا على اعتناقه ولم يقسر أحدا على السير فى طريق تعاليمه فضلا عن الاعتقاد .

جـ ـ النقطة الثالثة : المثالية فى الاسـلام :

وهى التى حرصت على بيان أن اعتناق الناس للاسلام لم يكن وليد مصادفة عشواء ، بل كان أثر الضغوط عنيفة من جانب الديانات الأخرى ، التى آلت على الناس أن يدخلوها خائفين ، وقد رأى أتباع الديانات الأخرى ما يتمتع به المسلم عند اعتناقه للاسلام ، من مساواة وتكافل اجتماعى وعدل يحقق كل خير للنـــاس جميعا ، فى العمل والعبادة والتكاليف والاعتقاد فانقلبوا إليه وتمسكوا به وصاروا مخلصين له ، وان تكن الرحلة الطويلة تحتاج الى حط الرحال ، ليستقر المسافر بعد طول ترحال ، ويستريح بعد طول معاناة ، ويعد نفسه لما بقى من ترحاله ويسجل خواطره وإلهاماته وأفكاره ، فاننا نحط هـهنا رحالنا ، وسنكمل البقيـــة فى أجزاء متتالية ، أن أمد الله فى العمر وبسط فى الرزق ، والله ولى التوفيق .

المؤلف

محمد حسينى موسى محمد

الغـــزالـى

غـــرة المحـــرم ١٤٠٨هـ

الباب الأول

الإسلام بين التعريف والدلالة

تمهيد

هل صحيح أن الاسلام دين عام خالد ؟ وأن ذلك من وسائل انتشاره بين أمم الأرض قاطبة ، وأن نبي الاسلام — سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء لكل المكلفين والعقلاء ؟

لعل محاولاتنا للاجابة على هذا السؤال وتوابعه ، هي محور هذا البحث ولن نصدر أحكاما قبل مناقشة الادعاء ، كما لن نرفض قولا دون استدعاء ، ولعل هذا المنهج يجعل الحقيقة في جانبه ، والدليل في لبه ، والبرهان في ثناياه ، استرشادا بقوله تعالى :

" قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ "

ولئن كانت محاولتي للاجابة قد سبقها كثيرون ، فانهم أدلوا بدلوهم ، وقاموا بواجباتهم ، ولا أزعم أن النقص فيما سجلوه ، حتى يكون فيما أنسب الكمال ، ولكنها محاولات يكمل بعضها الآخر ، بحكم ثقافة كل باحث وامكانيته في انتزاع الاجابة ، مؤيدة بالحجة مشفوعة بالدليل ، مصحوبة بتوفيق الله تعالى

من ثم كان هذا السؤال ، مصدر جذب للمسلمين وغيرهم ، يحاول المسلم الاجابة عليه بالاثبات ، ويعمل غيره على تأكيد النفي ، وحقا قد بذلت محاولات متعددة من الجانبين ، عمل كل منهما على اثبات مطلوبه ، ولو بطرق معقدة ،

أو ضـــاربة فى الغموض ، أما من جانبنا ، فلن نقدم الا الرأى الذى تغلـــب أدلته ، ولن نحتمى الا بالقوى المتين ، والركن الركين ، وسنعمل على تقديم أدلتنا فى سهولة ويســر ، مع وضوح وبيان ، ونسأل الله الســلامة فى ديننــا والنجاة به فى آخـــرتنا .

الفصل الأول

(تعريف المعاجم والمصطلحات للاسلام)

تعـــريف الاســـلام

حقا لقد بذلت محاولات متعددة ، لتعريف الاسلام بالحدود المنطقيـة مرة ، والألفاظ اللغوية مرة ، والاستشهاد بالمجازات العربية ، والشـواهـد الشعرية ، والنواحى الاصطلاحيـة والشرعية والعقدية ، مما يجعل تـلك التعاريف تتغرق هنا وهناك ، وتلزم طالبها التنقيب عنها فى كل هذه الكتابات وذلك أمر غير ميسور لكل الناس .

من ثمّ فاننا سنضرب صفحا عن أغلبها ، وسنحاول (باذن الله تعالـى) أن ننساب فى آيات الذكر الحكيم ، وسنة رسوله الكريم ، سيدنا محمد صـلى الله عليه وسلم ، نستلهمهما الرشـد ، ونهتدى بهما فى رحلتنا داخـل ذلك الجب العميق ، وفى أثناء تجوالنا بين ثنايا الغيهب الواسع الرقيق ، لعلنـا نأمل فى الوصول الى المنشود من أيسر طريق ، بين التعاريف العديـــدة للاســـلام .

ولا شك أن كثرة التعاريف والدلالات لمسمى واحد ، تؤكد ثراء الدلالـى كما هو الحال مع ثرائه الذاتى ، ولهذا سنعمل على تناول بعض التعاريـف، وبيان قيمتها من الناحية النقدية والتقويمية ، وقد عرّف الاسلام الشيخ / محمـد بخيت المطيعى فقال :

" الاسلام هو الشريعة ، وما جعله الله شريعة ، هو ما شرعه على لسان محمد صلى الله عليه وسلم من العقائد والعبادات والمعاملات والعقوبـات، والحدود والأقضية والشهادات ، وأحكام المواريث ، والسـعى فى مكارم الأخلاق والاحتزار عن رزائل الاحوال ، وغير ذلك مما شرعه الله وبينه لعباده ليعملوا بـه

ويعتقدوه " (١) وهو بهذا يجمع بين الجانب العقدى ـ النظرى ، والجانب الشرعى ـ العملى فى الاسلام ككل .

ولنا تحفظ على التعريف السابق ، من حيث التعبير بلفظ العقائد ، لأن العقيدة الصحيحة واحدة لدى جميع الرسل المبعوثين لأقوامهم من قِبَلِ الخالق العليم جل وعلا ، وهى الايمان المطلق بالله تعالى وبكل ماله من جلال وكمال واجلال ومهابة ، وقدرة وعلم وسلطان كامل مع التنزيه المطلق لكل صفاته وأفعاله وتلك العقيدة القويمة هى مدار الايمان للمؤمنين ، وبالتالى فان التعبير بالعقائد لا معنى له ، الا ان قصد به العقيدة الصحيحة وبجانبها العقائد الباطلة ، وليس مجالها فى هذا التعريف ، ولعل هذا التعبير جاء على عجل .

---

(١) الشيخ / محمد بخيت المطيعى ـ مفتى الديار المصرية سابقا ـ فى نظام الوقف ص ٤ المطبعة السلفية لسنة ١٣٤٥ هـ .

تعريف المعاجم :

قال صاحب التعريفات" العلامة الجرجانى الحنفى :

" الاسلام هو : الخضوع والانقياد لما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم " (١) متلقيا اياه عن ربه ، ولعل هذا التعريف قريب من تعاريف علماء الأصول .

وقال صاحب " مختار الصحاح " :

" أسلم من الاسلام " (٢) وفيه معنى التفويض الى الله تعالى ، والدخول فى كنفه والعمل ابتغاء مرضاته .

وقال صاحب " أساس البلاغة " :

" أسلم لأمر الله وسلّم ... وأسلم وجهه لله " (٣) ومعناه الانقياد التام واللجوء المطلق الى جانب المولى الكريم رب العالمين ، اذ فيه السلامة والنجاة ومنه العون والتوفيق .

من جماع تلك الوجوه نرى أن التعريف المعجمى للاسلام ينصب على ما يلى :

١ — الاعتقاد المطلق فى الله رب العالمين ، والتسليم له فى كل ما يتعلق بالمكلف مع العمل ابتغاء مرضاته جل وعلا .

٢ — الخضوع لأوامره جل وعلا ، واسلام الوجه له ، والانقياد التام لانبيائه ،

---

(١) السيد الشريف / على بن محمد بن على الجرجانى التعريفات ص ١٨ مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر .

(٢) الامام محمد بن ابى بكر بن عبد القادر الرازى مختار الصحاح باب السين ومعها اللام والميم .

(٣) الامام أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى أساس البلاغة باب السين مع اللام طبعة الشعب .

والالتزام الصحيح بالتعاليم التي يأمرهم الله تعالى بتبليغها الى الناس.

٣ ـ الاعتقاد الجازم بأن الله أرسل رسلا مبشرين ومنذرين ، وأنهم للخلق فضل من الله ، وأن مخالفتهم محادة لله تعالى ورسله ، وخروج على تعاليمه ، ومحاولة يائسة للسبح في بحار الظلمات ، وأوهام الحياة .

" يقول ابن الأنباري المتوفى سنة ٣٢٨هـ في المعنى اللغوى للكلمة المسلم معناه المخلص لله في عبادته ، من قولهم : سلم الشيء لفلان خلص له فالاسلام معناه اخلاص الدين والعقيدة لله تعالى " . (١)

وقال الراغب الأصفهاني صاحب مفردات القرآن :

أن الاسلام " فوق الايمان ، وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب ووفاء بالفعل واستسلام لله في جميع ما قضى وقدر ـ واتباع كامل ـ للذين يهتدون بأمر الله ويأتون بالشرائع " (٢) ، " وهذا المعنى الذى ذكره صاحب المفردات يرتبط ارتباطا وثيقا بالمعنى اللغوى لكلمة (اسلام) " (٣) .

ولعل من جماع تلك الأقوال أيضا نستطيع أن نعرف الاسلام ، من خلالها تعريفا معجميا شاملا فنقول ان الاسلام ، يعنى مطلق التسليم مع العمل فى الله وابتغاء مرضاته ، خضوعا لتعاليمه وانقيادا لأوامره ، واتباعا لرسله عليهم الصلاة والسلام ، وايمانا بما أجمله الحديث الشريف حين سئل الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم عن الاسلام فقال :

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٢ ص٤٢٣ المطبعة الخيرية نقلا عن الاسلام والايمان للدكتور / عبدالحليم محمود ص٥٠ .
(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني نقلا عن الاسلام والايمان ص٤٨ ، ٤٩ .
(٣) الدكتور / عبدالحليم محمود الاسلام والايمان ص٤٦ .

" أن تشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا " (١) .

وفى الجملة اتباع المأمورات الالهية ، واجتناب المنهيات ، والقيام على الطاعة ، والالتزام بالسلوك والعبادة ، وهذا غاية ما ينشده المسلم الذى يفرح الله بأوبته اليه .

وقد فطن الشاعر الألمانى الشهير يوهان ولفجانج جوته الى ما فى الاسلام من عظمة وخلود ، وصلابة وتذكية ، وما يتمتع به المسلم من أمن وأمان فهب يقول :

" من حماقة الانسان فى دنياه أن يتعصب كل منا لما يراه
وان الاسلام كان معناه ان لله التسليم
فاننا جميعا نحيا ونموت مسلمين "(٢)

وقال الشيخ سيد سابق :

" الاسلام فى اللغة : الخضوع والانقياد ، يقال فلان أسلم ، أى خضع وانقاد ، ومن ذلك قوله تعالى : أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ " (١) ، ثم تحدث عن اطلاقات لفظ الاسلام فقال :

" ويطلق لفظ الاسلام ويراد به مجموعة التعاليم التى أوحاها الله الى سيدنا

---

(١) الاربعين النووية بشرح النبراوى ص ١٧ ، صحيح مسلم .
(٢) الاستاذ / عبدالرحمن صدقى — الشرق والاسلام فى أدب جوته ص ٣٥ ، كتاب الهلال يونية ١٩٦٧ العدد ١٩٥ .
(٣) سورة آل عمران الآية ٨٣ .

محمد صلى الله عليه وسلم ، وهى داعية الى توحيد الله ، والخضوع لأحكامه والانقياد للأصول العامة التى جاء بها الأنبياء من قبل .

يقول الله تعالى : " شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ، وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ " (١)

" ومن ثم فقد أطلق لفظ مسلم على كل من اتبع هذه التعاليم ، فيقال ان نوحا مسلم وابراهيم مسلم وموسى مسلم وعيسى مسلم ، وكذلك يسمى بهذا الاسم كل من تبعهم وانقاد لتعاليمهم " (٢)

ونحن وان كنا نميل الى ما دلل عليه من اللغة ، فاننا نختلف معه فى أن لفظ الاسلام يطلق ويراد به مجموعة التعاليم التى أوحاها الله الى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ذلك لأن لفظ مجموعة وتعاليم — تراكيب غير مألوفة فى الاسلام ، بل هى نسيج من أفكار اليهودية والمسيحية ، ثم ان لفظ مجموعة التعاليم التى أختص بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ليس مؤديا الى الهدف الأساسى من رسالة نبى الاسلام ، صلى الله عليه وسلم ، وهى كونه رسولا للانسانية جمعاء والجن كذلك ، وكونه خاتما ، وبالتالى فان ما ذكره فضيلته بلغة التضعيف — فيقال — يؤكد ما ذهبنا اليه ، ونحن نؤكد أن التعبير الصواب ، هو أن الاسلام يطلق على ما أنزله الله على رسوله والالتزام بما أنزله عن يقين واختيار وبغية أرضاء الله رب العالمين .

(١) سورة الشورى الآية ١٣
(٢) الشيخ / سيد سابق — دعوة الاسلام ص ١٣ ط دار الكتاب العربى بيروت طبعة ١

الفصل الثانى

الاسلام ابتهال الأنبياء وتضرع المرسلين

الاسلام ابتهال الأنبياء وتضرع المرسلين

وحتى يعلم مدعو الاتباع للأنبياء أنهم فى اعتقادهم مخالفون ، وأن الانبياء والمرسلين جميعا مسلمون ، عاشوا وبلغوا وماتوا مسلمين ، ننقل بعضا قصه القرآن الكريم فى هذا الشأن ، وفى أنبياء بنى اسرائيل خاصة ، ليتحطم الى الأبد كل أمل فى رقى اليهود على غيرهم ، أو خلود المسيحية ولو فى بنى وطنهم أو عمومها ، فضلا عن بطلانهما وزيفهما .

كليم الله موسى عليه السلام :

ينتصر بأمر الله على فرعون وسحرته ، وينقلب المصباح السحرى من يد فرعون ويؤمن السحرة بالله رب العالمين ، متبعين نبى الله موسى ، ويعمل الفرعون على استئصالهم والقضاء على كل أثر لهم ، ويعد جيوشه ويستعرض جنده ، ويحاول اللحاق بهم ليعيد موسى ومن آمن بالله معه الى عبادة الضلال ، أو يسومنهم سوء العذاب ، وينزل بهم ألوان الانتقام ، لأنهم آمنوا بالله رب العالمين ، ولم يكن لموسى عليه السلام ومن معه الا الابتهال الى الله تعالى فارتفعت اليه أيديهم ، وتطلعت أفئدتهم ، وتنسمت وجداناتهم أعابير الأمل الذى فيه سبحانه وتعالى ، فانقلبوا اليه ضارعين ، راجين أن تكون المرحلة الختامية لهم فى الدنيا ، مصحوبة بالهام الهى يحفظ عليهم الاسلام الذى اعتنقوه ، فقال تعالى حاكيا عنهم :

" وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ، رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ " (١) . وقد كان هذا التضرع وليد صدق فى الاعتقاد ، وسلامة فى

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٢٦

الايمان وتوكل على الله ناشىء من ايمان مطلق ، منذ الوهلة الأولى ، التي فتح الله عليهم فيها ، فشاهدوا عظمة الخالق ، حينما تلاشت كل ألاعيبهم ، والفنون ، واندثرت كل حيلهم - وهم السحرة - في الانتصار على معجزات أجراها الله على يد موسى عليه السلام تأييدا له في دعواه ، لذا انطلقوا مع موسى عليه السلام بالله موحدين ، وفي الاسلام داخلين وعلى الله متوكلين فقال تعالى :

" وَقَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ " فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ " (١) وبالتالي فقد كان موسى ومن آمن بالله معه مسلمين ، وكان فرعون وأتباعه من الكافرين ، فاذا جاءنا اليوم وما بعده مَنْ يدعى أنه تابع لموسى عليه السلام ، وأنه يهودى ، كذبناه لأن الله كذبه ، وأن موسى لم يكن الا مسلما وبالتالي نطالبه ان كان محبا لموسى عليه السلام ، أو تابعا له (صادقا في دعواه) أن يعلن اسلامه الذى عاش كليم الله به ومات ويلقى الله في الآخرة عليه وأن يحكم توراة الله فيه متمثلا قول الله تعالى :

" إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا " (٢) وفيها الايمان بخاتم الأنبياء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، والاسلام .

---

(١) سورة يونس عليه السلام الآيات ٨٤ / ٨٦

(٢) سورة المائدة الآية ٤٤

يوسف عليه السلام :

ابن نبي الله يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ، مسلم يبتليه الله بالمحنة فيصبر ، ويبتليه الله بالنعمة فيشكر ، ثم تهب جوانحه في تضرع الأتقياء ، وخوف الأنبياء ، وثقة المقربين ، داعيا المولى الكريم ، أن يخرج من الدنيا على الاسلام الذي ارتضاه الله للعالمين ، قال تعالى ، حاكيا عنه :

" رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ " (١) وفعلا خرج يوسف من الدنيا الى الآخرة بهذا اليقين وهو أن الاسلام هو الدين الحق الذي ارتضاه للمكلفين رب العالمين .

ومن أنواع الابتهال التضرع بالانقياد للحق والاذعان له من ذلك قوله تعالى " وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ " (٢)

وحتى لحظة الهلاك التي حاقت بفرعون ، ظن أن النجاة في قولة الاسلام وأنها القارب الذي سوف ينتشله من بين أحضان الموجات الهادرات اللائى تدفعه الموت ، وتضمه بين ذراعيها وان كان تضرعه لم ينجه لأنه لم يكن مخلصا فيه وصوره القرآن الكريم في قوله تعالى :

" وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ

---

(١) سورة يوسف عليه السلام الآية ١٠١

(٢) سورة النمل الآية ٨١

الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ "(١)

وكم حاول التعلق بأصل الدين وأساس الفطرة ، ولكنه تصويب بعد فوات الأوان ، وايمان بالشفاء لم يبلغ مرحلة الاذعان ، وتسليم الخوف لا أسلام اليقين والوجه والوجدان ، ولهذا لم ينفعه أن ينطق بالاسلام ، كما لم يمنعه من الهبوط فى درك الخسران .

عيسى ابن مريم عليه السلام :

كلمة الله لمريم ، ورسول الله الى بنى أسرائيل ، مصدق لموسى عليه السلام فى نبوته ، ومبشر برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم فى رسالته ، لم يكن يهوديا ، كما ظن بنو اسرائيل ، أنه المنقذ والمخلص لشعب اسرائيل من سيطرة الرومان ، وذل الاستعباد ، وقسوة الحرمان ولم يكن نصرانيا ، كما زعم من نسبوا أنفسهم اليه ، انما كان حنيفا مسلما ، عبدالله ورسولا له ، جاء يدعو الى الله بالاسلام ، ويدعو بالاسلام الى الله ، فاستجاب له الحواريون ، وأعلنوا أنهم جميعا لله مسلمون ، قال تعالى :

" فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، آمَنَّا بِاللَّهِ ، وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ " (٢) ولعلها الطائفة المؤمنة من بنى اسرائيل التى توجه عيسى عليه السلام اليهم بالنداء فى قوله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ

(١) سورة يونس الآية ٩٠
(٢) سورة آل عمران الآية ٥٢

أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ " (١)

وقوله تعالى :

" وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِى وَبِرَسُولِى قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ " (٢)

ولعل ادعاء قوم انتسابهم اليه ، يسقط من أول وهلة ، ويتهاوى لأول نظرة فهو قد انتسب الى الاسلام ، وأعلن أنه مثل سائر الأنبياء ، والمكلفين العقلاء ، مسلم يدعو الى الله على بصيرة ، وبالتالى فزعم قوم أنهم مسيحيون ، أو نصارى ، منتسبون لعيسى عليه السلام ، زعم لا يطابق القرار الرسمى والاعلان الحقيقى لعيسى عليه السلام ـ النبى المسلم ، ودعوته السمحاء .

بلقيس ملكة سبأ :

نعمت فى ظل قومها ملكة عليهم ، فى رحاب مملكة مترامية الأطراف ، فيها النعيم الدنيوى ، الذى يعضده رجال أشداء فيهم من الحماسة ما يصونها ومن الكفاءة ما يشيد بناءها ، ومن الوثنية ما يحركهم نحوها ، وكان يمنعهم السعيد محط مده ومؤئل تلك ، حتى جاء هدهد نبى الله سليمان ، فكشف عن هؤلاء القوم ، ملكة وشعبا ، ديانة وقيادة ، وقد صور القرآن الكريم بعض تلك المظاهر

---

(١) سورة الصف الآية ١٤
(٢) سورة المائدة الآية ١١١

فقال تعالى :

" فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ، إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ، وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ " (١) ، وترائى للهدهد من بعيد أن تلك العبادة الوثنية ليست أصيلة فى الاسلام وانما الاسلام يعنى السجود والتسليم والانقياد لله رب العالمين ، وكان على هؤلاء القوم أن يصححوا مسار الفطرة فى نفوسهم ، وأن يتجهوا لمن فى الأرض سلطانه ، وفى السماء جبروته ، وتحت الأرض قدرته ، وفى كل شىء له آية ، فقال ما حكاه القرآن الكريم .

" أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ، اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ " (٢) من هنا أرسل سليمان الى الملكة يدعوها لتصحيح مسار الفطرة ، وانصياع قومها الى حقيقة التدين المطلوب شرعا ، وهو الاسلام الحنيف ، فلما وصلها الخطاب بادرت بارسال الهدايا ولما تأكد لها أن سليمان لايرغب فى مال ولا هدايا ، ولا مطلب له الا الاسلام وتحقيقه فى الصدور ، ولا مفر منه لغيره ، فاستشارت وانتهى بها المطاف الى اتخاذ قرار " عقد القمة " بينها وبين نبى الله سليمان ، وفاجأها سليمان ببيان فضل الله وإتيان سليمان بعرش بلقيس ، تواجه به وتستريح عليه ، " فَلَمَّا جَاءَتْ ، قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ، قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ " (٣) .

---

(١) سورة النمل الآيات ٢٢ — ٢٤
(٢) سورة النمل الآيتان ٢٥ ، ٢٦
(٣) سورة النمل الآيـة ٤٢ .

ومن هنا اندلعت في حناياها ثورة عارمة ، تزيل الوثنية الطاغية ، وتهز البنيان المرتعش ، وتغدو وفي فؤادها أزمة حادة ، تحركها الى كل منحنى " ولما أرادت دخول الصرح والوصول الى العرش ، ظنت الزجاج — الذي هو أرض الصرح الذي شيده سليمان لها في عاصمة ملكه قبل زيارتها — ماء فكشفت عن ساقيها لئلا تبتل ثيابها بالماء ، وأخبرت بأن ما ظنته ماء انما هو زجاج " (١) وأنه من فضل الله على سليمان نبيه ، ومن دلائل قدرة الله وكمال عظمته .

هنا لمع في عينيها بريق متوهج ، وانطلق في وجناتها دم متدفق ، فخلص القلب من أدرانه ، ونهض من رقدته واستيقظ الوجدان من غفوته ، فهتفت جميعها وانطلقت حواسها ، ورتل فؤادها ما حكاه القرآن الكريم :

قال تعالى :
" قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ، وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ، قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ، قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ، وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " (٢) .

وهكذا أنطلقت من قيدها ، لتعلن اسلامها ويتبعها قومها ، ليصح فيها وهم اعتقاد سليم وايمان قويم ، وتبلغ فيهم شأوا عقيدة أصيلة " فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " (٣) .

---

(١) الشيخ / عبد الوهاب النجار — قصص الأنبياء ص ٢٦٦ مكتبة دار التراث .
(٢) سورة النمل الآية ٤٤
(٣) سورة الروم الآية ٣٠ .

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

خاتم أنبياء الله وخيرة رسله ، يتمسك بهم ، ويعلن أنهم أخوته ، يجمعهم دين واحد هو الاسلام ، فيقول عليه السلام " الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد " (١) ، يأتى ركبه خاتما لكل نبوة سابقة ، ويعلن عمومها والخلود ، فهو نبى الأمة التى يصح أن تسمى بالأمة المحمدية ، لأنها أمة شملت جميع المكلفين من الانس والجن ، وفى كل الأصقاع والبقاع ، وتخللت كل زمان وأى مكان ، يقودها فى ذلك نبيها ، ويمسكها بشرع ربها من هنا ألتصقت به ، وهو آخر الأنبياء رسالة ، وأمته آخر الأمم وجودا .

جاء صلى الله عليه وسلم ، يعلن أنه أول المسلمين ، وأنه على شريعة الاسلام قائم بأمر الله ، وأن الاسلام شمل كل جوانب حياته ، بحيث لم يترك فراغا لشىء غيره ، فقال تعالى :

" قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ " (٢) .

ولعل ذلك يؤكد أن الاسلام دعوة عامة ، ودين خالد ، وهو المعتبر عند الله دنيا وأخرى وبالتالى فقد نفى القرآن الكريم عن الأنبياء الأوصاف التى يحاول البعض الصاقها بهم ، وتقسيمهم الى فئات وتوزيعهم على أصناف فقال تعالى :

" أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ " (٣) .

---

(١) أخرجه الامام احمد فى المسند ج ٢ ص ٤٠٦ — ٤٣٧ — ٤٦٣ — ٥٤١

(٢) سورة الأنعام الآيتان ١٦١ ، ١٦٢

(٣) سورة البقرة الآية ١٤٠

ولا شك أن ذلك كله يؤكد ما أسلفناه من أن الاسلام هو الدين الحق ، أرسل به الأنبياء أجمعون ، ونادى بتحقيقه أتباعهم المخلصون ، وكان تصرعه الدائم صلى الله عليه وسلم به وذلك فيما قصه القرآن الكريم فى قوله تعالى :

" إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا ، وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ " (١)

وكان البيان الالهى يخاطب الرسول الكريم ، بأساس مهمته ، فى قوله تعالى " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ " وجاء التوجيه الالهى ببيان أصل التوحيد ومحل الاعتقاد ، وكيفية التوجه للمعبود واسلام الوجه والقلب والوجدان فقال تعالى " قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ " (٢) وأكد الحق جل وعلا على أن الاسلام أصل الاعتقاد ، وأن المتبعين لرسل الله هم أصحاب الاسلام ، وأهل الله ، وبالتالى سموا بالمسلمين فى قوله تعالى :

" وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ، وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ " (٣) . وليس هذا بغريب ، وليس بدعا أن يكون الاسلام هو الأصل فى الاعتقاد ، بل هو الاعتقاد نلمح ذلك من اعتراف أهل الكتاب وقصه القرآن الكريم فى قوله تعالى : " وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ، وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ " وهنا يمتدح الله

---

(١) سورة النمل الآية ٩١
(٢) سورة الأنبياء الآيتان ١٠٧ ، ١٠٨
(٣) سورة الحج الآية ٧٨

اسلامهم ، ويبشرهم بالفوز الكبير لأنهم آمنوا بما كان فى زمانهم وأسلموا لله مع آخر أنبيائه ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى :

" أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ " (١) .

هذا فى جانب من أتبع الرسول ، وصدق بالاسلام ، وانقاد لله رب العالمين .

(١) سورة القصص الآيات ٥١ — ٥٤ .

موقف غير المسلمين فى الآخـرة

وعلى الجانب الثانى نلاحظ موقف القيامة ، والخلائق فيه متغايرة ، المسلم يلقى جزاء إحسانه ويحظى بالنعيم الذى وفقه الله اليه ، ينعم ويسعد ، أمـا الكافر فنرى القرآن الكريم ، يصور موقفه فى الآخرة بالمتمنى الذى يبذل كـل مساعيه رغبة فى الحصول على بعض ما يتمناه ، ولكن هيهات أن يتحقق له شىء من ذلك ، وقد قص القرآن الكريم ذلك الموقف فى قوله تعالى :

" الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ " (١)

وليس هذا التمنى هرباً من موقف بعينه محدد " بل سيأتى يوم يرغم فيه هؤلاء المعارضون على تمنيهم ، فى أنهم لو كانوا من قبل مسلمين وآخذين أنفسـهم بالطاعة له ، وهو يوم الحساب والجزاء " (٢) ، " أى ربما تمنى الكفار لو كانـوا مسلمين ـ أى لو كانوا فى الدنيا مسلمين وذلك عند معاينة أهوال الآخرة " (٣) من ثم فان غير المسلم يعيش فى الدنيا عالة على ضمير غيره ، وباعتقاده الخاسر يكون عبئا ثقيلا على نفسه ولن ينفعه فى الدنيا شىء من اعتقاده الباطل أو تعلقه بغير الاسلام ، ويوم يتوارى عن الانسان شبح الأمل الدنيوى ويتلاشى أمامـه سلطانه وماله ، وما كان يعتمد عليه فى الدنيا ، تجده يهرع الى الاسلام يستشعره فى داخله ، ويتنكر لكل ماضيه الخاسر ، ويعلن أنه مسلم ولكن هيهات فقد قاده اعتقاده الخاسر وعمله الفاجر الى النار ، ولن ينفعه اعلانه الاسلام طمعا فـى النجاة لأنه لم يخلص فيه ، ويومها يتمنى لو أنه لم يخلق " يوم ينظر المرء مـا قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا " (٤) .

---

(١) سورة الحجر الآيتان ١ ، ٢

(٢) د / محمد البهى تفسير سورة الحجر ص الناشر مكتبة وهبة بالقاهرة .

(٣) الشيخ / محمد على الصابونى ـ صفوة التفاسير جـ٧ ص ١٠٥ .

(٤) سورة النبأ الآيـة ٤٠ .

الفصل الثالث

(تعريف القرآن الكريم للاسلام)

تعريف القرآن الكريم للاسلام

عرف القرآن الكريم الاسلام ، بأنه الدين الذى ارتضاه الله رب العالمين للمكلفين أجمعين ليعرفوه تعالى به ، ويعبدوه من خلاله ، وأنه الشامل لعقيدتهم السليمة ، وشريعتهم القويمة ، وأنه الذى آمن به كل الأنبياء ، وبلغه كل المرسلين ، من لدن آدم عليه السلام الى النبى الكريم ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الصادق الأمين ، عليه أذكى الصلاة وأتم التسليم .

فقال تعالى :

" وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ " (١)
وأكد على أن الدين المعتبر عند الله تعالى لكل المكلفين الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، هو الاسلام ، لا مسيحية ، ولا يهودية ، ولا مجوسية ، ولا غير ذلك الا الاسلام ، فقال تعالى :

" إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ، إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ " (٢)
وأنه الدعاء المستجاب ، والتسليم الواعى ، والأمل المنشود ، وأنه هتاف الأنبياء وابتهالات المرسلين ، والالهام الذى تطمئن اليه النفس ، وبه يبقى اليقين ، ودعوة الخليل ، فقال تعالى :

" رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ " (٣) وأن الله مدح خليله ، لأنه لبى النداء الداخلى فى الأمر الالهى " إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ " (٤)

(١) سورة آل عمران الآية ٨٥
(٢) سورة آل عمران الآية ١٩
(٣) سورة البقرة الآية ١٢٨
(٤) سورة البقرة الآية ١٣١

وبين القرآن الكريم ، أن الاسلام كان الوصية الدائمة من الخليل ابراهيم عليه السلام لأبنائه وقام بها بنوه لأولادهم من بعده ، وكانت عهدا بجانب الوصية وثقه ابراهيم وبنوه في حياته ، وظلوا من بعده متمسكين به يلقنونه للناس ويعلمونه فقال تعالى :

" وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ " (١) وعلى درب الخليل ابراهيم سار حفيده يعقوب بن اسحاق عليهم السلام ، فيما قصه القرآن الكريم ، فقال تعالى :

" أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ " (٢) والله تعالى قد أكد على أنه الدين العام الخالد ، لكل المكلفين ، وأنه دين كل المرسلين وأن الايمان الكامل بما يقره الاسلام ، هو المعتبر في الدنيا والآخرة وأنه أمر الله لعباده جميعا ، فقال تعالى ، على سبيل الأمر الوجوبي :

" قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ " (٣)

وأكد القرآن الكريم على أن نبي الاسلام ، سيدنا محمد متمم لحلقة الأنبياء وأنه معهم في العقيدة الصائبة فقال تعالى : " قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . " (٤)

(١) سورة البقرة الآية ١٣٢
(٢) سورة البقرة الآية ١٣٣
(٣) سورة البقرة الآية ١٣٦
(٤) سورة آل عمران الآية ٨٥ .

وهدم القرآن الكريم كل بناء هش ، نسبه صاحبه الى الله ، مدعيا فيه تقسيم الدين المنزل وتصنيف الأنبياء ، وأن هذا دين نصرانية ، وذاك يهودية ، وثالث مجوسية أو بوذية ، والأنبياء لهذا التقسيم تبع فقال تعالى :

" مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ " (١) ثم بين القرآن الكريم في جزالة وصدق ، أن أصل الاعتقاد لدى كل المكلفين هو الاسلام من لدن آدم عليه السلام ، وأن أية عبادة مخالفة هي الكفر الصريح ، ولو كانت عبادة الملائكة المقربين أو الأنبياء والمرسلين من حيث الاعتقاد فيهم بالربوبية ، فقال تعالى :

" وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ " (٢) ، من هنا شدد القرآن الكريم على المؤمنين ، وأمرهم بالمحافظة على اسلامهم الذى هو أصل الفطرة التى جعلهم الله عليها ، وأكد لهم أن الخوف من الجليل يقتضى الالتزام فى السلوك بالتعاليم حتى اذا كان الخروج من الدنيا على الاسلام فقد تمت لهم النعمة ، فقال تعالى :

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ " (٣)

ولما كان الاعتقاد فى غير الاسلام ، طلبا لدين مجهول وصاحبه عند الله مرذول ، وبخاصة أن الاسلام هو دين البشرية جمعاء ، وأن طلب غيره بغى بغير حق ، وأن الكائنات جميعها ترجو أن تسلم لله بل هى بالفعل له أسلمت فان الله قد سخر من طالبى غير دين الاسلام فقال تعالى :

---

(١) سورة آل عمران الآية ٦٧
(٢) سورة آل عمران الآية ٨٠
(٣) سورة آل عمران الآية ١٠٢

" أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ ، وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ " (١) .

ولعل من يطالع آيات القرآن الكريم بتدبر وتأمل ، يجد أن القرآن الكريم تحدث عن مكانة الاسلام ، وأن الأنبياء جميعا كانوا مسلمين ، وأنه اذا أختلف الرسول مع المرسل اليهم ، لا يجد مناصا من القول لهم ، مما حكاه القرآن الكريم من حوار سيدنا نوح عليه السلام مع قومه .

" وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ، يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ ، فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ " (٢) .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٨٣

(٢) سورة يونس الآيتان ٧١ ، ٧٢

الفصل الرابع

(تعريف السنة المطهرة للإسلام

تعريف الحديث الشريف

عرفت السنة الاسلام ، وبينت ما أجمل القرآن الحديث فيه ، وقادت المسلم لبابه ، فهدته الى السبيل الميسر أرتياده ، وكشفت عن جمال الاسلام وباهت بكماله ، بحيث اذا شاء ناظر أن يتعرف على الاسلام وحال المسلمين وصفاتهم ، لا عليه الا أن يتجرد من تعصبه ، وأن يكاشف نفسه ، ويجاهد داخله ، وحتما سوف يصل الى بيان كاف ، وتعريف شاف للاسلام ، من ذلك فى السنة المطهرة. ما روى -

" عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال ، بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أذ دخل علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه علامات السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، فجلس الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وأسند ركبتيه الى ركبتيه وقال يا محمد أخبرنى عن الايمان فقال عليه الصلاة والسلام : الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، قال صدقت ، ثم سأله عن الاسلام ، فقال عليه الصلاة والسلام : الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت أن استطعت أليه سبيلا ، قال صدقت ، ثم سأله عن الاحسان (١) ، والمطالع للحديث يواجه تعريفا شاملا للاسلام ، شمل العقيدة والشريعة ، والمعاملات كما شمل العبادات والاعتقاديات بحيث يدرك لأول وهلة ، أنه أمام تعريف جامع ، مانع لا ينقصه حد أو رسم ويعنى بشهادة اللسان والقلب والجوارح والجنان ، وعمل القلب واللسان ، ومواطأة الجوارح والأبدان ، بما يوفر على المرء قدرا من التقوى ، ويسبغ عليه فيضا من الرحمة والألفة ، ويشيع فى ثنايا وجدانه ، النور والأمل ، البريق والوفاء .

وما ذلك الا من التعريف اليسير الذى نبهت أليه السنة المطهرة .

---

(١) صحيح مسلم .

وفى السنة المطهرة بيان لأركان الاسلام ، فعن أبن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واقام الصلاة ، وأيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن أستطاع اليه سبيلا " (١)

وقد شغلت السنة بقضية الاسلام من كل نواحيه ، سواء من ناحية الأركان أو من ناحية البنيان أو من ناحية البقاء والاستمرار ، أو ناحية الثواب والعقاب كل ذلك بشروط معينة وقواعد مضبوطة تريك الى أى حد أهتمت السنة بالاسلام ، باعتبار الدين الحنيف ، الدين الصحيح ، الدين السليم دين رب العالمين .

وبالرغم من أن دين الاسلام لم يجبر أحدا على الدخول فيه ، فانه حافظ على بنائه من الداخل والخارج ، فكما أنه لا يلزم أحدا على الدخول فيه ، فانه لا يتسامح مع من يحاول الخروج منه ، لأنه قبله مختارا ، وبالتالى فاذا حاول الخروج منه فقد صار كافرا به ، مرتدا عنه ، يراق دمه ، وتسقط حرمته ، ما لم يتب قبل الظفر به .

وحرصا من الاسلام على من كانت حالهم بهذا الشكل ، أمر قائد المسلمين بقتال المرتدين وركز على أن قتالهم — كمرتدين — أمر من أمور الدين ، لا يتوقف قتالهم ، الا بأحد أمرين :

الاول : التوبة ، فقد " أجمع المسلمون على أن المرتد اذا كانت ردته بالشرك فان توبته بالشهادتين " (٢) .

الثانى : الانهاء عليهم كلية ، وذلك كله لأنهم قبلوا مبدأ الاسلام دون اكراه ، واعتنقوه دون ضغط .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) الشيخ / سليمان بن عبدالوهاب النجدى ، الصواعق الالهية فى الرد على الوهابية ص ٥ طبعة استانبول .

يتضح هذا من قوله صلى الله عليه وسلم :

" أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم ، الا بحقها وحسابهم على الله " (١) والملاحظ أن الناس الذين قد أمر الرسول بقتالهم ، هم أولئك الذين شغلتهم حساباتهم المادية فحجبوا الزكاة ، أو أنكروا الصلاة **او ترددوا فى شهادة التوحيد بعد أن اعترفوا** بها وجرت أحكامها عليهم ، ثم نكصوا على أعقابهم ، فى محاولة لاتباع مسيلمة الكذاب وأضرابه ، ولعل هذا الفهم قد يسّره لنا قوله صلى الله عليه وسلم .

" أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله ، ويؤمنوا بى ، وبما جئت به ، فاذا فعلوا ذلك ، عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها " (٢) وحقها المستثنى هو المفهوم من اجراء التوحيد فمن اعترف بالاسلام دينا واستحق الوصف به ، أجريت عليه أحكامه ، بحيث يصير ماله وعرضه ودمه حرام ، الا بما يبيح ذلك من خلال التكاليف الشرعية .

لقوله صلى الله عليه وسلم " كل المسلم على المسلم حرام ، ماله وعرضه ودمه " (٣) و قوله صلى الله عليه وسلم " لايحل دم أمرئ مسلم يشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، الا باحدى ثلاث :
الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة " (٤) متفق عليه ، وعلى هذا فمن تحققت عقيدة الاسلام فى قلبه ، وجب اجراء أحكامها عليه وليس له الحق فى الخروج عليها بحال من الأحوال ، طالما أنه فى البداية لم

---

(١) رواه البخارى ومسلم وابن ماجة وأحمد وزاد ابن خزيمة " (آن محمدا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة "

(٢) صحيح مسلم كتاب الايمان جـ١ ص٠ ١٧٠ـ١٧٩ وأخرجه البخارى فى كتاب ، الايمان جـ١ ص٧٥ حديث رقم ٢٥ .

(٣) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم ظلم المسلم وخذله ١٢١/١٦

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب الديات باب قوله تعالى " ان النفس بالنفس جـ١٢ ص٢٠١ حديث رقم ٦٨٧٨ وأخرجه مسلم فى كتاب القسامة باب ما يباح به دم المسلم جـ٤ ص٢٤٣ .

يكره عليها ، وبالتالى لا يهدر دم المسلم الا اذا ارتد ، ولا يؤخذ من ماله الا للزكاة ، ولا يؤخذ من دمه الا للقصاص ، وغير ذلك مما يدخل فيهما معا ، أو على انفراد ، ويكون بحقها منصرفا الى الالتزام بها كاملة كعقيدة ، وما تأمر به كشريعة ، وما تحث عليه من أخلاق ، وتجيزه من معاملات لا يفترق فى ذلك أحد من المسلمين ، كما لا يجوز فى اجراء أحكامها الاستثناء ، الا فى حالات الاضطرار والمرض .

وذلك مما تناولته كتب الأحكام وأفاضت فى بيانه من أصوله وفروعه .

زعم مرفوض ورأى غير سديد :

يزعم بعض من يَدَّعون تطاولهم العقلى ، أن الاسلام قام على حد السيف ، والنصل وأن أتباعه لو تركوا وحالهم لما دخلوا فى الاسلام أصلا ، فضلا عن الاستمرار تحت عباءته ، وأنه لا يمنعهم من الخروج عليه ، الا السيف المسلط على الرقاب ، ويأخذون من الآيات القرآنية التى جاءت فى شأن الجهاد ، الأدلة على ما يزعمون ويغالى بعضهم فيجعل الأحاديث النبوية ذات الدلالة المحددة بشأن المرتدين ، قاعدة عامة يتوسع فيها كيفما شاء له الهوى ، ليصل الى أن الاسلام انتشر على حد السيف والسنان .

من هذه الأحاديث ، قوله صلى الله عليه وسلم " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ...... (الحديث) ، وفى مقابل هؤلاء يأتى حصاد آخرين ، نحسن الظن بهم ، ليس لهم فى دراسة الحديث الشريف (دراية ورواية) أدنى نصيب ، ينصبون أنفسهم مدافعين عن الاسلام ، دون أن يتمكنوا من وسائل الدفاع ، فيقعون فى أشر مما يزعم البعض ، حيث أعتبروا كل حديث شريف لا يتفق مع نص القرآن الكريم مدسوسا ، ولو كان ذلك مما ورد بصحيح

البخارى أو مسلم أو أصحاب الكتب الستة ، ليصلوا بذلك الى أن حديث " أمرت أن أقاتل الناس ... (الحديث) مدسوس كغيره من الأحاديث المدسوسة فيقولون :

" ٣ـ الرواية التى تنسب الى سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : أمرت أن أقاتل الناس ... الحديث . ومن البديهى أن الدعوة الى مقاتلة الناس لاكراههم على الدخول فى الاسلام ، هى دعوة باطلة لأنها تتناقض مع العديد من الآيات القرآنية ، التى تحدد منهاج الدعوة الى دين الله والتى تتمثل فى أنه لا اكراه فى الدين ... وهكذا يتبين أن الدعوة الى مقاتلة الناس ، من أجل الدخول فى الاسلام ، هى دعوة باطلة ، لأنها تتعارض مع صريح الآيات القرآنية .. ومن ثم يكون الحكم على هذه الرواية بأنها مدسوسة . (١)

وصاحب هذا الرأى لايخفيه ، وقد بذل محاولات شتى لجذب أنصار له ولو بتحريك خصوم عليه ، وتبنى تلك الدعوة الهدامة فى أكثر من مرة ، وكانت صحيفة الأخبار المصرية الميدان فى بعض الأحيان ، يتلقف أدنى حديث عن السنة المطهرة ، ثم يمسك به ، ويحاول الخوض وكأنها مهمة أساسية جرد نفسه لها وشحذ قلمه للولوج فيها ، دون أدنى مبرر معقول لذلك .

من ذلك أن أحد الناس أرسل الى جريدة الأخبار ، صفحة الجمعة يطالب فيها المسلمين بمحاولة جمع أحاديث البخارى ومسلم فى كتاب واحد ، وركز مبررات مطلبه فى أمرين :

الاول : لأن فى الصحيحين ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بمعنى أن ما ورد بهما صحيح قطعا .

---

(١) د / حامد حسان وآخرون — مواجهة الفكر المتطرف فى الاسلام ص ١٤١ — ١٤٢ باختصار مطبعة الجبلاوى بالقاهرة .

الثانى : لأن حاجة العصر أصبحت ماسة بل ملحة لذلك ، وهذا شعور كل مسلم غيور .

الا أن صاحب الدعوة الهدامة ، تلقف الموضوع وانتهى الى أن قال " اذن ، فحاجة العصر ماسة وملحة ، ليس لجمع أحاديث كتابين فى كتاب واحد — ولكن لتنقية هذه الأحاديث من تلك الروايات المدسوسة — رغم أنهما البخارى ومسلم اللذين أجمع المسلمون قاطبة على صحة ما بهما من أحاديث وان تفاوتت فى درجات الصحة من التواتر الى الآحاد — وكلها صحيحة على ما يعرفه المتخصصون فى هذا العلم الفسيح — التى تلعب دورا خطيرا فى افساد العقيدة وتخلف الأمة ، وزرع بذور الفتنة بين أبنائها "

ثم خرج اللبيب بقانون من عنده ، يعرض عليه الأحاديث ، ليعرف صحتها من غيره ، فقال " وذلك بعرض هذه الروايات — الأحاديث الموجودة بالبخارى ومسلم — على القرآن الكريم ، فما يتعارض منها مع الآيات القرآنية ، فهو بلا شك موضوع يجب أن يرد ، وينقى منه البخارى ومسلم " (١) .

ورغم أن تلك الدعوة باطلة ، والأفكار ساقطة ، الا أن صاحبها يلح ويلعب دورا خطيرا فى تنميتها لدى كل من يجد لديه استعدادا لذلك ، وقد نصب نفسه ثوريا على الأحاديث النبوية الصحيحة لدى المحققين ، الذين يعرفون الصحة والوضع ، ويعرفون كيفية التفريق بين هذا وذاك ، حتى أعتبر النقاد والمفكرون فى العالم جميعه ، أن علم مصطلح الحديث يؤكد أصالة العقلية الاسلامية ، وأنها لا مثيل لها فى الدقة والثبات ، والصدق والعدل ، كل ذلك من خلال علم الجرح والتعديل ، وعلم الحديث دراية ورواية ، وذلك ما لا

---

(١) جريدة الأخبار ليوم الجمعة ص٣ بتاريخ ١٩٨٠/٥/٣٠ الطبعة الثانية العمود الخامس د / حامد حسان .

يعرفه صاحب الدعوة ولا السائرون فى السراب خلفه ٠

ويحاول صاحب تلك الدعوة الهدامة ، أن يثير القلاقل ويوقظ الفتنة في جرأة بالغة دون مراعاة لأبسط قواعد الحق والعدل ، فيقول متحدثا عن نفسه بضمير الجمع " ونحن نعيد اثارة هذه القضية ، لأن كثيرا من المسلمين لا ينتبه اليها ، تحت وطأة الأقوال التى تصور له أن البخارى ومسلما هما أصح الكتب بعد كتاب الله ، فيضطر المسلم اضطرارا الى الغاء عقله والتسليم بأى رواية يقرأها فى أى منهما ، حتى ولو تعارضت مع ظاهر القرآن وبديهيات العقل " ٠

وتشتعل الأفكار الالحادية لديه ، فيؤكد بصلابة الجاهل ، أن التمسك بالسنة الصحيحة ، كما فى البخارى ومسلم خطر جسيم لا يطاق لأن السنة " تلك كانت أحد عوامل التخلف الذى ترزح تحت كاهله امتنا اليوم ، ساعد عليه أن من يدركون هذه الحقيقة (وهم قليل) خشى كثير منهم أن يجهر بذلك ، خوفا من أن تلاحقه الاتهامات بالكفر والزندقة والخروج والتشكيك فى الاسلام الى آخر هذه الاتهامات " ٠

ثم ينتهى الى نتائج سلبية أعدها من فيض خياله الجامح فيقول " فى حين أن الاسلام هو عقيدة كل مسلم على حدة ، ويجب أن يكون مقتنعا ومطمئنا لكل ما يقال له ، لأن المولى عز وجل سيحاسبه على ذلك ، سيحاسبه على كل ما كان يعتقده ويردده ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر ، ولن يحاسب نيابة عنه أولئك الذين يحاولون الوصاية عليه باسم الدين " (١) ٠

---

(١) المرجع السابق من نفس الصفحة بالجريدة مقال الدكتور / حامد حسان ٠

وفى تقديرى أن هذا الزعم لا يرقى الى مجال الرأى ، لأن للرأى قواعد وأصول ، فلا يقبل رأى من غير متخصص ولا يقال على ما يردده أنه رأى، فعلى سبيل المثال ، اذا وقف جراح للقلب أمام مريضه وبدأ فى شق طريق له الى الجزء الذى يريد اصلاحه ، وجاءه مهندس أيا كان تخصصه وطلب اليه أن يغير طريقه ، وأن يستخدم أجهزة أخرى لمجرد أن المهندس حدثه خياله بها ، فهل يوافقه الطبيب؟ حتما لن يستمع اليه ، كما لن يتمكن من الدخول الى غرفة العمليات الا اذا كان معقما ، وذلك أبسط آداب المهنة ، وبالتالى فما قاله المهندس مجرد خيال داعب صاحبه فى غفوة غير مرتقبة ، ولن يستجيب له الطبيب لأن ما يراه المهندس لا أساس له فى الطب .

وأيضا اذا جلس عالم الذرة ، وراح يسلط الاشعاعات ليفصل بعضها عن الآخر وليحدد بدقة قيمة النواة ، أو يحطم الذرة المطلوب تحطيمها ، ثم حاول الطبيب أن يتدخل ، ليستعمل المهندس المبضع الذى لازم الطبيب سنوات ، فهل سيوافقه المهندس ؟ أعتقد أنه لن يوافقه ولن تفلح رجاءاته فى تغيير موقفه ، وستظل ذرتا الرديوم واليورانيوم تعاندان الباحث وحتى يبحث لهما عن حل ، فما تزال السلطة المؤقتة لهما .

وكذلك اذا قاد طيار نفاثته وانطلق بها ، ثم تدخل معه فى الحديث بحار وطلب منه أن يقود الطائرة بنفس مقاييس السفينة ، فهل سيوافقه وينزل الطيار بها الى عرض البحر ليغالب الموج وقصف الريح ؟ أم أنه سيدير ظهره اليه ويحذر أمن الطائرة منه ، لاحتمال أن يكون به مس يدفعه لارتكاب حماقة تودى بحياة الجميع والأمثلة عديدة ، اذن فلماذا نرفض التخصص فى السنة المطهرة وعلوم الدين ؟!

من هنا فاننى أركز على نقطتين جوهريتين :

الأولى : أن هذه الأفكار منحرفة ، ومكان الرد عليها لن يكون فى هذا الكتاب.

الثانية : أن البخارى ومسلما هما أصح الكتب (فى السنة المطهرة) وكل ما فيهما صحيح وان اختلفت درجات الصحة ، وذلك لايقدح فيهما ولا أحدهما ، وهذا ما عليه اجماع المسلمين فى كل مكان وزمان ، وهناك جهود موفقة لبيان ذلك .

ثم ان فكرة وجود تعارض بين القرآن الكريم والسنة المطهرة ، لاأساس لها لأنهما معا من عند الله تبارك وتعالى ، وكل منهما يؤدى دوره المتعلق به على أكمل وجه أراده الله تعالى ، أما ازالة التعارض بعد تصوره ، فهو راجع لفطانة الباحثين والمتخصصين فى أمور الدين الاسلامى الحنيف ، وليس للمسطحيين ، الذين لايعرفون التفرقة بين التَّبْهِم وَالْبُهْم ، من ثم فلا وصاية لهم بأسم الدين ، ولكنها النهاية الأكيدة التى ينادى بها كل المتخصصين فى فنون العلم الواسع الرحب ، والمتخصصون فى دراسة الاسلام من علماء المسلمين ، هم أحرص الناس عليه ، وهم المؤاخذون إن قصروا ، وهم قد أكدوا على أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة لايختلفان أبدا ، وأى تعارض يظن فانه فى الظاهر فقط ، أما فى الحقيقة فانهما معا من عند الله تعالى ، كما أن الاسلام لم ينتشر أبدا بالسيف والسنان ، وانما بالحجة والبرهان ، على ما سيرد ان شاء الله تعالى .

أما القول بأن الاسلام انتشر بحد السيف فهو مرفوض ، ولو كان من خلال فهم خاطىء للحديث ، وعلى الزاعم أن يراجع الكتب الموثقة بدلا من الضياع والركون الى قرين السوء ، ونسأل الله للجميع الهداية والتوفيق .

ونحن من جانبنا نرى :

١ — أن الزعم بانتشار الاسلام على حد السيف زعم باطل ، وفهم لمدلول النص خاطئ ، وتزوير في التاريخ بلا مقابل ، ومثل هؤلاء يقعون فيما يزعمون ، ويسقطون من حيث للعلو يقصدون ، وقد تكفل الزمان بتسوية حساباته معهم ، فهيأ الله لهم من يرد الصاع صاعين ، ويرشد للهدى من بني البشر الضالين ، ولسنا بصدد بيان محاولاتهم ومواجهتهم ، فذلك أمر آخر ، تخصص له متسعا وقد أوجزنا الحديث عنه (١) .

٢ — أما الرأى الذى يحاول أن يرفض الأحاديث التى يستند اليها الزاعم ، ويجعلها من المدسوسات ، فهو رأى غير سديد ، وفكر غير رشيد ، لأسباب عدة منها :

أ — أن ما وقع فيه الزاعم ، من فهم قاصر للحديث هو نفس ما وقع فيه الرافض لصحة الحديث ، ثم أن قصور المدارك عن الفهم ، أو علو المعنى عن بعض الأفهام ، ليس عيبا في الحديث الشريف ، انما هو عيب في المتوجه الى الحديث ولو كانا على طرف (ولو ضعيف) من أسرار اللغة العربية ، لتأكدا أن حرف أل في الناس ، ليس للجنس وانما هو للعهد ، والمعهود هم أولئك الذين يحاربون الاسلام ، وقد دخلوا فيه ، أو دخلوا فيه ثم أرتدوا عنه ، وبالتالى لا يكون التعارض موجودا بين نص القرآن الكريم ، ونص الحديث الشريف فضلا عن المعنى .

ب — أن من بنوا رأيهم على أن مقياس صحة الحديث الشريف ، هو وجود نص له في القرآن الكريم ، هو بناء فاسد ورأى باطل ، ومعلومات غير

---

(١) راجع الباب الثانى من هذا الكتاب لتعرف ان حرية العقيدة في الاسلام هى السبب في انتشاره .

موثقة لأنه من المعلوم عند المسلمين أجمعين ، (الا من شذ عن اجماعهم) أن السنة توضيح وبيان لما أجمله القرآن الكريم (١) ، تقيد مطلقه ، أو تطلق مقيده ، وأن لها (السنة المطهرة) مع القرآن الكريم ، الاستقلال فيما لم يأت به القرآن الكريم من أحكام ، فعلى سبيل المثال ، نجد ذكر الصلاة فى القرآن الكريم مجملة ، فأتت السنة المطهرة ، لتعرفنا بأنواعها وأوقاتها وعدد ركعات كل واحدة منها ، وكيفية الدخول فيها والخروج منها ، مما لم يذكره القرآن الكريم مفصلا وقد استقلت هى به على سبيل التفصيل .

ويقول صاحب حاشية الجمل :

" ونحن نجد كثيرا من أحكام الشريعة (الاسلامية الغراء) لم يعلم القرآن الكريم نصا كعدد ركعات الصلاة ، ومدة المسح (على الخفين) والحيض ومقدار حد الشرب ، ونصاب السرقة وغير ذلك " (٢)

وكذلك الزكاة جاءت فى القرآن الكريم مجملة ، فجاءت السنة موضحة ومفصلة الأنواع التى تجب فيها الزكاة والشروط الواجب توافرها فيها ، من بلوغ النصاب وحول الحول فيما فيه النقد ، وكيفية معالجة الأنصبة اذا اختلطت أنواعها ، وفى المزروع والثمار والتجارة والأرض الميتة ، وركازها ، وذلك كله مما لم يوجد فى القرآن الكريم مفصلا وقد استقلت به السنة المطهرة .

ومثل ذلك فى أعمال الحج وبداية صوم رمضان والافطار منه ، وكيفية استقباله ووداعه ، بما أفاضت فيه السنة المطهرة ، ويطول البحث والاستقصاء فى كل ذلك لنرى السنة المطهرة مصدرا أساسيا للتشريع الاسلامى بعد القرآن الكريم، لا متى صحت فى عقول بعض الناس المجهولين لأن الاعتداد فى كل فن بشهادة أهله

---

(١) راجع منزلة السنة المطهرة من القرآن الكريم فى كتب الأصول والأحكام .
(١) حاشـــية الجمل جـ ٢ ص٣ ،٥

ولا يعرف قيمة السنة الشريفه ومكانتها ، الا أصحاب الحديث الشريف وعلماء الجرح والتعديل ورجال الفقه والأصول والعقيدة ، وأصحاب هذا الرأى المزعوم ليسوا من هؤلاء ولاهم تعلموا من أولئك ، اذن فرأيهم لا يخرج عن مجرد التخمين والتخمين جناية اذا تعلق بمسائل الدين .

جـ — أن دعاة الالتزام بالنصوص القرآنية فقط ، هم أعداء السنة المطهرة الذين يرومون من وراء ذلك فصل القرآن الكريم عن السنة ، وفصل مصدرى التشريع الاسلامى عن بعضهما ليقع المرء فى حيرة من دينه ميتردى فى مهالك الضلال ، لأنه سيقع حتما فى مخالفة صريحة لقوله صلى الله عليه وسلم " تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا ، كتاب الله وسنتى " (١) وقوله : صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه مرفوعا " تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما أبدا ، كتاب الله وسنتى " وقوله تعالى : " وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا " .

د — أن أصحاب الأقلام المسمومة ، والدعوات الهدامة ، والنوايا الخبيثة والضمائر المأجورة ، يعملون دائما (ودون كلل أو ملل) على فصل القرآن الكريم عن السنة المطهرة ، أو التقليل من الاعتماد عليها ، أو التصويت المباشر ضدها ، أو الدس فيها والاضافة اليها ، كل هذا أو ذاك لأغراض ليس لها من الاسلام نقير ولا ضربت فيه بقطمير ، ولن تؤثر عليه باذن الله ولو بشكل يسير .

---

(١) جامع الأحاديث جـ ٣ ص ٥٧٩

والمؤسف حقا أن تظهر فى هذه الآونة ، فرقة تسمى نفسها " بأسماء اسلامية " ، كما ظهرت الأحمدية من قبل ، تعمل على استقطاب العلمانيين ومن لانصيب لهم فى الفقه عن الله ، وتحاول هذه الفرقة بأعضائها أن تصدر مؤلفات باسم الدين والدين منها براء ، والمحصلة النهائية لهذه الفرقة ما يلى :

١ — كفر بالدين باسم الدين ، لأن من يؤمن ببعض ما أنزل الله ويكفر بالبعض الآخر ، لايكون له الا ما توعد الله أمثالهم به " أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ ، وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ(1) " وفى التفسير الذى لايعرفونه ، أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والتمسك من السنة بما يوافق القرآن الكريم ، هو كفر بباقى السنة الصحيحة التى وضحت المقصود من القرآن الكريم وفصلت مجمله .

٢ — فهم خاطىء للقرآن الكريم :

وهذه الفرقة وأمثالها تجادل فى القرآن الكريم ، وتجادل به وهم فى الحالتين لايعرفون الا اللجج ، ولا يفهمون الا ماترمى اليه نواياهم المسبقة وليسوا مستعدين لفض عقولهم من الأوهام التى حملوها ، أو الأحكام التى أمروا من قبل موجهيهم بها ، فهم يسقطون العقيدة من نفوس أتباعهم (أعنى العقيدة السليمة) ليشغلوهم بعقائد صيغت من عند غيرهم ، وهم مجرد حملة لها ، لاتقوى أمام الفقد ، ولا تصمد عند المواجهة .

فاسقطوا الجهاد ، والزكاة ، والحج ، من معانيها السامية ، الى مفاهيم ضيقة خافتة ، واستباحوا الردة ، والحكم بغير ما أنزل الله ، ودعوا الى ذلك كله طاعنين فى السنة الصحيحة ، رافضين للفقه والأصول ، محرضين على

(1) سورة البقرة الآيتان ٨٥ ، ٨٦

عداوة الله ورسوله ، والله منهم براء ورسوله (١) .

٣ — أنهم بهذا التصور الهزيل ، ينخرطون مع أدعياء التصوف الساذج ، لا التصوف الحقيقي ، ويندمجون في دعاة التعلق بالدنيا ، والتمسك بالسلطان ، ولو كان في ذلك غضب شديد للرحمن ، بل انهم من أشد الطوائف على الاسلام خطرا ، لأنهم يعملون على التشكيك فيه مباشرة ، وذلك بالطعن في السنة الصحيحة ، والفهم الخاطيء للقرآن الكريم ومحاولة التحلل من كل قيد ، وضعه الباحثون في السنة المطهرة ، أو القائمون فيه على تفسير كتاب الله تعالى .

٤ — محاولاتهم المتكررة النيل من العلم الديني عن طريق التهجم على العلماء وذلك باسقاط صفة العلم عنهم ونسبة مؤلفات باطلة اليهم ، وتصوير آراء ، منزوعة الأصل كأنها لهم ، وهم في سبيل بلوغ الهدف يستبيحون كل وسيلة ويبررون أية جريمة ، ومن يطالع مؤلفاتهم يجد ما لا يكفي معه الكلام ولا يجدي معه الا قولنا — حسبنا الله ونعم الوكيل .

ومن يراجع كتب الأصول والأحكام في الاسلام ، يجد مكانة السنة واضحة جلية " وأن وظيفة السنة النبوية تفسير القرآن الكريم ، والكشف عن أسراره وتوضيح مراد الله تعالى من أوامره وأحكامه ، ونحن اذا تتبعنا السنة (النبوية) من حيث دلالتها على الأحكام التي اشتمل عليها القرآن الكريم ، اجمالا أو تفصيلا وجدناها ترد على هذه الوجوه الأربعة " :

---

(١) راجع بعض مؤلفات هذه الجماعة من أمثال كتاب :
أ — مواجهة الفكر المتطرف في الاسلام — مطبعة الجبلاوي ١٩٨٠م .
ب — حقيقة الحكم بما أنزل الله — دار نهر النيل للطباعة الطبعة الأولى ١٩٨١م .

الوجه الأول : المطابقــــة :

وهى أن تكون السنة موافقة لما جاء فى القرآن الكريم ، فتكون واردة حينئذ مورد التأكيد ويكون الحكم مستندا إلى المصدرين ، وذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم " ان الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته " (١) متفق عليه . فهذا الحديث يوافق قول الله تعالى : "وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ"(٢) وقوله تعالى : "فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا" (٣) ، ومن هذا الوجــه تأتى " جميع الأحاديث التى تدل على وجوب الصلاة ، والزكاة ، والحج ، والبر والاحسان ، والعفو ، وما أشبه ذلك (٤) " وحرمة الشرك وشهادة الزور ، وقتل النفس المعصومة وعقوق الوالدين " (٥) .

الوجه الثانى : البيـــان :

وهو أن تكون السنة بيانا لما أريد بالقرآن الكريم ، وأنواع هذا البيان ما يلى :

١ ــ بيان المجمل :

والمجمل هو " ما خفى المراد منه ، بحيث لا يدرك بنفس اللفظ الا ببيان من المُجمِل سواء كان ذلك لتزاحم المعانى المتساوية الاقدام كالمشترك ، أو لغرابة اللفظ كالهلوع ، أو لانتقاله من معناه الظاهر الى ما هو غير معلوم.(٦)

ودور السنة هنا هو توضيح ما أجمل فى القرآن الكريم " وذلك مثل الأحاديث التى بينت جميع ما يتعلق بصور العبادات ، والأحكام من كيفيات وشــروط

(١) صحيح البخارى جـ ٨ ص ٢٥٤ ، ومسلم جـ ١٦ ص ١٣٧ .
(٢) ســورة هــود الآية ١٠٢ .
(٣) سورة الطارق الآيــة ١٧
(٤) الشيخ / محمد بن علوى المالكى الحسنى ــ المنهل اللطيف فى أصــول الحديث الشريف ص ١٢ طبعة ٤ مطابع سحر بجدة .
(٥) الدكتور / على حسب الله ، اصول التشريع الاسلامى ص ٤٦ متصرف بيسر .
(٦) السيد الشريف الجرجانى ــ التعريفات باب الميم .

وأوقات وهيئات ، فان القرآن الكريم لم يبين عدد ووقت وأركان كل صلاة مثلا ، وانما بينته السنة المطهرة (١) وذلك في ناحية بيان المجمل " .

ومن البديهي أن هذا الدور للسنة لا يمكن أن يسمى تكرارا لما جاء به القرآن الكريم ، وانما هو بيان وتفصيل لما جاء مجملا في القرآن الكريم ، واغفال هذا الدور للسنة كفر بها ، لأنه حرمان لها من واحد من أهم خصوصياتها ، ألا وهو البيان للقرآن الكريم ، والتوضيح لأحكامه ، لقوله تعالى : "وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ"(٢)

٢ — تقييد المطلق :

ونعني بالمطلق " ما يدل على واحد غير معين (٣) وهو غير المجمل وليس عكسا له ، فقد يأتي المطلق في القرآن الكريم ، كحكم من الأحكام فيحتاج الى تقييد يناسبه ، ويجعله محددا ، ولا يناسب ذلك مباشرة الا السنة المطهرة في علاقتها مع القرآن الكريم ، " وذلك كالأحاديث التي بينت المراد من اليد في قوله تعالى " "وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" " (٤) فان في الآية ذكر فيها حكم السارق والسارقة ، وذكر فيها نوع العقاب ، وأنه القطع ، الا أنها لم تحدد اليد التي تقطع ، والجزء المراد قطعه ، فجاءت السنة المطهرة متمثلة في فعله صلى الله عليه وسلم وقوله ، مبينة ومقيدة ومؤكدة على أن اليد التي تقطع أولا هي اليد اليمنى وأن مقدار القطع في السرقة من الكوع لا من المرفق " ولا خلاف في ذلك .

---

(١) الشيخ / محمد بن علوى المالكي الحسني — المنهج اللطيف في أصول الحديث الشريف (ص ١٣ .

(٢) سورة النحل الآية ٤٤ .

(٣) التعريفات باب الميم .

(٤) سورة المائدة الآية ٣٨ .

وليس تقييد المطلق فقط بل وتحديده تحديدا كاملا ، بحيث لا يوجد بعده مجال للرأى ، ولا نصيب للاجتهاد ، وانما الخلاف فى الصفة التى تلحق بالسارق ، حتى يوصف بها ، والشروط التى يجب أن يُحَدَّ بها والملابسات من تحريز المسروق ، وعدم الشبهة ، وتوفير فرص العمالة وعدم المجاعة ، الى غير ذلك من الشروط التى تتعلق بالوصف لا بالحكم ، وهو ما تقوم به السنة المطهرة بجانب القرآن الكريم .

٣ — تخصيص العام :

ونعنى بالعام ما كان شاملا لأكثر من معنى وفرد بالتساوى ، أو باختلاف فى مقدار الدرجة ، بحيث يكون الخاص جزءا منه أو من معناه ، ولا يتضح الخاص من العام الا بوسيلة ، وذلك مثل قوله تعالى " الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ " (١) ، ولفظ الظلم عام ينصرف الى المعصية كما ينصرف الى معنى الكفر ، وهذا ما ورد فى القرآن الكريم فجاءت السنة النبوية بدورها لتخصص العام ، وتجعله ينطبق على أحد أفراده المقصودة وهو الكفر .

" هذا وقد وردت أحاديث صحيحة ، فسرت الظلم فى هذه الآية بالشرك ، ومن ذلك ما رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : لما نزلت الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم " قال الصحابة وأينا لم يظلم نفسه ؟ فنزلت " ان الشرك لظلم عظيم ، وروى الامام أحمد عن ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية : " الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ " شق ذلك على الناس ، فقالوا يارسول الله ، فأينا لا يظلم نفسه ؟ قال : انه ليس الذى تعنون ، الم تسمعوا ما قال العبد الصالح

(١) سورة الأنعام الآية ٨٢

" ان الشرك لظلم عظيم ، انما هو الشرك " (١)وعلى هذا النحو كـــان دور السنة النبوية المطهرة مع القرآن الكريم تخصيص للعام ، كما هى تقييد للمطلق ، وبيان للمجمل .

٤ — توضيح المشكل أو بيان المبهم :

والْمُشْكِل هنا غير المشكل فى الفقه ، فان المشكل هناك (فى الفقه) من لم تعرف هويته من ناحية الذكورة أو الانوثة ، والمشكل وصف له ، وهو ليس المراد معنا فى الحديث الشريف ، من ناحية توضيح المشكل الـذى نحن بصدد الحديث عنه هنا .

والمشكل " هو مالا ينال المراد منه الا بتأمل بعد الطلب ، وهو الداخـل فى أشكاله ، أى أمثاله وأشباهه مأخوذ من قولهم أشكل أى صار ذا شـكل كما يقال أحرم اذا دخل فى الحرم وصار ذا حرمة " (٢) والمراد بالمشكـل المطلوب توضيحه هنا ، هو الذى لا ينال المراد منه الا بتأمل بعد طلبه مثال ذلك قوله تعالى فى شأن الاستعداد ليوم الصيام (من السحور ، والامساك) قبل مطلع الفجر "وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ " (٣) .

فقد فهم عدى بن حاتم أن المراد هو بيان ما يصح الحكم عليه فى الضوء أنه أبيض والثانى أسود ، فقال " لما نزلت هذه الآية (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ) عمدت الى عقالين أحدهما أسود والآخر أبيض، قال فجعلتهما تحت وسادتى ، قال : فجعلت أنظر اليهما ، فلا تبين لى (الأسود من الأبيض ، ولا الأبيض من الأسود ، فلما

(١) د / أحمد السيد الكومى ، ومحمد سيد طنطاوى تفسير سورة الأنعام ص١٧٩
(٢) التعريفات باب الميم .
(٣) سورة البقرة الآية ١٨٧ .

أصبحت عدوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته بالذى صنعت فقال : عليه السلام : ان وسادك اذا لعريض ، انما ذلك بياض النهار وسواد الليل " (١) .

والذى أشكل هنا هو لفظ البياض ولفظ السواد ، فجاءت السنة المطهرة لتوضح أن المقصود بالأبيض والأسود فى الآية ، ليس ما تبادر الى فهم " عدى بن حاتم " والا لاستحال ذلك على غيره ، وانما المقصود هو ما يمكن فهمه لعدى وكل مسلم ، ألا وهو بياض النهار باستعداد الفجر له ، وسواد الليل الذى ينجلى ويزول بصدع أول ضياء الفجر ، ولعل فى هذا القدر كفاية لبيان دور السنة المطهرة فى توضيح المشكل فى القرآن الكريم وبيان على الوجه السابق والذى به تتم وجوه البيان الأربعة .

الوجه الثالث : النسخ :

ونعنى به استبدال حكم لامتداد آخر ، وهو فى عرف الشرع " بيان انتهاء مدة الحكم بخطاب لولا هذا الخطاب لاستمر الحكم على مشروعيته ، بمقتضى النص الذى تقرر به أولا " (١) وهناك خلاف واسع فى مفهوم النسخ ، ووجوده ، وتحققه ، وأنواعه ، مما لا مجال للاستفاضة فيه ههنا ، فليرجع اليه فى مصادر طالبه ، أما هنا فنقرر وجود نسخ لحكم ثبت بالقرآن الكريم أولا ، فأتت السنة المطهرة (باعتبارها وحيا) فنسخت هذا الحكم ، على رأى من يجيز نسخ الكتاب بالسنة ، من ذلك قوله تعالى " كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ " (٢) .

---

(١) الامام الحافظ ابن كثير تفسير القرآن العظيم المجلد الاول ص ٢١٦ طبعة الشعب .

(٢) الدكتورين / احمد السيد الكومى ، محمد سيد طنطاوى — التفسير الوسيط للقرآن الكريم — البقرة القسم الأول ص ١٣١ مطبعة قاصد خير ط الاولى ١٩٧١م

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٠

قال العلامة ابن كثير " اشتملت هذه الآية الكريمة ، على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين ، وقد كان ذلك واجبا — على أصح القولين — قبل نزول آية المواريث ، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه ، وصارت المواريث المقدرة فريضة من الله يأخذها أهلوها حتما من غير وصية ، ولا تحمل منة الموصى "(١) ، وعلى هذا تكون آية الوصية قد نسخت بآية المواريث ، ولكن عاد ليؤكد أن النسخ وقع بآية المواريث ، وأن الوصية قبل الاسلام كانت بين الندب والوجوب ، وأنها كانت واجبة " فيتعين أن تكون منسوخة بآية الميراث ، كما قاله أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء " ووجوبها على هذا للوالدين والأقربين منسوخ اجماعا(٢)

وكذلك وقع النسخ بالنهي عن الوصية بالحديث الشريف " فعن عمرو بن خارجة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب وهو يقول : ان الله قد أعطى كل ذى حق حقه ، فلا وصية لوارث " (٣) وعلى هذا يكون النسخ لآية الوصية قد وقع بآية المواريث ، وجاء الحديث تأكيدا للنسخ الثابت بالآية ، وللتوفيق نقول ان الآية قد نسخت بالحديث الذى نهى عن الوصية للوارث ، فلما نزلت آية المواريث بينت الأنصبة ، وأصحاب الفروض فى وقت متزامن قريب جدا ، لا يكاد تغيب عليه شمس النهار ، وذلك أيسر وأجدى .

الوجه الرابع : الاستقلال :

وهو استقلال السنة المطهرة بالحكم ، بمعنى أنه يجوز للسنة الصحيحة أن تستقل باصدار حكم ، لم يأت فى القرآن الكريم ، ولعل هذا ما يشير اليه

(١) الامام ابن كثير — تفسير القرآن العظيم المجلد الاول ط الشعب ص ٢٠٢
(٢) المرجع السابق ص ٢٠٣
(٣) المرجع السابق ص ٢٠٢

فعل سيدنا معاذ بن جبل رضى الله عنه ، واقرار رسول الله له ، حين بعثه رسول الله الى أهل اليمن وسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كيفية القضاء الذى سوف يتولاه بينهم ، فقال الصحابى الجليل ، أحكم بينهم بكتاب الله . فان لم أجد ، فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا شك أن اقرار الرسول صلى الله عليه وسلم لمعاذ فى الرجوع الى السنة المطهرة مباشرة اذا لم يجد فى القرآن الكريم الجواب كما أنه دليل واضح على الاستقلال .

وقد جاءت السنة بأحكام لم ترد فى الكتاب الكريم — كتحريم الحمر الأهلية وكل ذى ناب من السباع ، وتحريم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها ، والرسول لا يأتى فى هذا الباب (الاستقلال) بما يناقض القرآن الكريم ، لأنه أعرف الخلق بما يبلغ عن ربه ، وأخبرهم بمقاصد الشريعة ، لعناية الله تعالى به ، وعصمته من الزيغ ، وتوفيقه الى الحق وتسديده الى الصواب " (١) ، ومال قوم الى أن السنة لا تستقل بذاتها فى حكم ، ولكنه نوع من الحاق الفرع بالأصل الذى خفى الحاقه به ، أو الحاقه بأحد أصلين يتجاذبانه " (٢) ، وعلى كل فذلك الذى مضى ، هو دور السنة المطهرة نحو القرآن الكريم فى التشريع الاسلامى .

---

(١) الدكتور / على حسب الله — أصول التشريع الاسلامى ص ٤٨

(٢) الموافقات جـ٤ للامام الشاطبى ، والرسالة للامام الشافعى ، تيسير الوصول الى علم الأصول ، وكذلك ارشاد الفحول للشوكانى

(تزكيـــة الله للمســلمين)

نزل الوحي الأمين بالقرآن الكريم ، على قلب النبي الصادق الأمين ، تزكية للمسلمين ، وتطهيرا لقلوبهم ، وتبيانا لكل ما يحتاجونه ، في أمور معاشهم ومعادهم ، حتى لأنهم المستفيدون به وحدهم ، المتأملون فيه ، المنتفعون بأوامره ونواهيه وأحكامه ، وعقيدته والشريعة ، فقال تعالى : " وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ " (١) ، قال صاحب صفوة التفاسير ، " أي هداية للقلوب ، ورحمة للعباد ، وبشارة للمسلمين المهتدين"(٢) ، فلاريب أنهم المنتفعون به ، لأنهم به مسلمون ، وعلى هديه سائرون ، ولربهم ونبيهم منقادون ، وأولئك هم المسلمون ، الذين اختصهم الله لعبادته وثبتهم بالحق على دينه وزكاهم في كل من عقيدتهم والشريعة الملقاة عليهم ، والتكاليف التي حملوا بها .

فقال تعالى :

" وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ، قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ " (٣) .

" قال ابن عباس : كان اذا نزلت آية فيها شدة ثم نسخت قال كفار قريش ، والله ما محمد الا يسخر من أصحابه ، يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا ، وانه لا يقول

---

(١) سورة النحل الآية ٨٦

(٢) الشيخ / محمد علي الصابوني — صفوة التفاسير ج ٧ ص ١٢٦

(٣) ســورة النحل الآية ١٠٢ .

ذلك الا من عند نفسه ، فنزلت " قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ " أى قل لهم يا محمد ، انما نزله جبريل الأمين من عند أحكم الحاكمين بالصدق والعدل لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ، أى ليثبت المؤمنين بما فيه من الحجج والبراهين فيزدادوا ايمانا ويقينا ، وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ، أى وهداية وبشارة لأهل الاسلام الذين انقادوا لحكمه تعالى : وفيه تعريض بالكفار الذين لم يستسلموا لله تعالى " (١) .

" والقرآن (الكريم) مع ذلك بشرى للمسلمين العاملين به ، بنصر الله لهم فى الدنيا على أعدائهم وان طال الأمد ، وبما أعد الله لهم فى دار كرامته من النعيم الذى لاينفد ، وفى قوله تعالى : لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ، بيان لحكمة النسخ وتعريض بالمشركين ، فانهم متزلزلوا الأقدام ضالون ، لانفاذ للحق الى قلوبهم ولا انتفاع لهم بالقرآن (الكريم) المنزل من عند الله ، خلافا للمؤمنين به فانهم وحدهم المنتفعون به " (٢) .

ثم زكى الله تعالى فيهم عقولهم وحواسهم ، وامتدح فيهم الاستجابة اليه وحده ، وبأن غيرهم لايستحق وصف الاسلام ، فقال تعالى " وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ " (٣) ، وبالتالى فان المسلمين صفوة مختارة فيهم الأنبياء ، ومنهم المرسلون ، فأى تشريف للمسلمين بعد هذا " إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ " (٤) .

---

(١) صفوة التفاسير ج ٢ ص ١٤٢ .
(٢) الدكتور / محمد متولى آدريس — تفسير سورة النحل ص ٥٨١ رسالة دكتوراه بكلية أصول الدين القاهرة — شوال ١٤٠٠ هـ — أغسطس ١٩٨٠ م .
(٣) سورة الروم الآية ٥٣ ، وسورة النمل الآية ٨١
(٤) سورة النمل الآية ٩١

بل إن القرآن الكريم ، قد أضاف للمسلمين بُعْدًا أكبر مما يتصوره العقل البشرى ، حيث أكد أن الله تعالى ، قد أعد لهم رضوانا عظيما ، وجنات تجرى من تحتها الأنهار ، وأنهم ممن ألهمهم الله الصواب ، فى عبادته والرشد فى دينه ، فقال تعالى : "إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ، وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا " (١)

وما على المسلمين الا أن يفطنوا لما أكرمهم الله به ، فيصونونه عن كل ما يحاول المبطلون ادخاله عليه ، أو ضياعهم فى مناحيه من شبه باطلة ، أو عقائد بشرية متوهمة .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٥ .

الباب الثانى

الإسلام وحرية العقيدة

تمهيـــــــــد

حرص الاسلام من أول عهده ، على بيان حرية المرء فى اختيار عقيدته ، التى يدين بها ويلتزم ، وكشف له الفروق الجوهرية ، بين ما يجب أن يعتقد ، وما يجب أن لا يعتقد ، حتى صار واضحا للعيان ، طريق الرشد وطريق الضـــلال ولم يكتف بهذا بل راح يدلل على صحة الحق ، وفساد الباطل ، ويوضح ثواب الهدى وينذر بعاقبة الخسران ، على قاعدة المسئولية والجزاء ، أو الترغيـــب والترهيـــب .

وحين نقلب صفحات الاسلام ، تواجهنا أمثلة جياشة ، تفيض بحرية العقيدة وتشيد بها حتى اذا تلونا آيات الذكر الحكيم ، هلت علينا حرية العقيدة ، فى حلل البهاء والكمال ، محفوظة بقواعد الهيه ، وأحكام سماوية ، تزينها ســـور القرآن الكريم ، وتحيطها بهالة من الوقار ، سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وما من شك فى أن الاسلام قد حاز فضل السبق فى قيادة الأمم ، على غيره من الديانات ، وكانت حرية العقيدة التى تمت فيه وسيلة فعالة لذلك التقـــدم وآلة حية متدفقة لاحراز النصر المبين ، حتى صار من الممكن القول ، بأن حريـــة العقيدة فى الاسلام ، ومحاولات التأكيد عليها ، قد فتحت باب التأمل فـــى الاسلام ، والانتهاء الى الدخول فيه ، عن عقيدة سليمة ، وعلى هدى وبصيرة .

من ثم فاننا نذكر بعض الآيات التى تحدثت عن حرية العقيدة فى الاســـلام ونعقبها بأقوال المفسرين ، لعلها تُرَاجَعُ ونحن فى نهايات القرن العشريـــن ، ويكون تأثيرها كما كان على الأولين ، قرآنا يتلى على قلوب أشد من الحجـــارة صلابة فتلين ، وآيات ترتل فتوقظ عقول الغافلين ، وذكر حكيم تترى قصصه علـــى مجالس القوم فتخضع لجلالها هامات المتكبرين ، فينطلقون الى الاسلام مسلمين

وبه الى خلائق الأرض مبشرين ، وتحت رايته مستشهدين ، ولأحكامه متابعين متبعين ، العزيز فيهم ذليل أمام عدل الاسلام ، والذليل عزيز بعدل الاسلام فقادوا دولة الحضارة ، وشادوا للعالم أعظم منارة ، ألا وهي منارة الاسلام الحنيف

وقد توالت آيات القرآن الكريم ، في بيان مفهوم حرية العقيدة من حيث ذاته مرة ، ومن حيث تعلق النبي صلى الله عليه وسلم بها مرات ، ومن حيث انحصار مهمة الرسول في البيان والتبليغ ، ثم ركزت عليها من خلال الترغيب والترهيب . مما يجعلنا نفرد لكل حيثية منها دراسة مستقلة بها ، ونجملها هنا ثم نفصلها فيما بعد .

١ — الحرية المطلقة في اختيار العقيدة :

قال تعالى :

" لَاإِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَاانْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ " (١)

" وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا " (٢) .

٢ — حرية العقيدة ونفي الاكراه :

" وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ " (٣)

" وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ " (٤)

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٦
(٢) سورة الكهف الآية ٢٩
(٣) سورة هود الآية ١١٨
(٤) سورة يونس الآية ٩٩

" قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ " (١)

٣ ـ حرية العقيدة مع الترغيب والترهيب :

قال تعالى :

" لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ " (٢)

" وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ " (٣)

٤ ـ حرية العقيدة مع بيان استغناء الخالق :

قال تعالى :

" إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ، وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى " (٤)

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا " (٥)

٥ ـ حرية العقيدة ومهمة الرسول فى التبليغ :

" فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ " (٦)

" فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ " (٧)

---

(١) سورة الكافرون .
(٢) سورة ابراهيم عليه السلام الآية ٨
(٣) سورة النمل الآية ٤٠
(٤) سورة الزمر الآية ٧
(٥) سورة النساء الآية ١٧٠
(٦) سورة الغاشية الآيتان ٢١ ، ٢٢
(٧) سورة آل عمران الآية ٢٠

٦ — حريـــة العقيدة مع تأمين المخالف :

قال تعالى :

" وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ " (١)

وهـــاك تفصـــــيل ما أجملنا .

---

(١) سورة التوبة الآيـــة ٦

الفصل الأول

(الحـــرية المطلقـــة فى اختيـــار العقيـــدة)

الحريــة المطلقــة فى أختيار العقيدة

حرصت ديانات كثيرة على أن يساق المرء لعقيدته ، وأن يجرعها مهما كانت مرة المذاق ، مما جعل الفيلسوف الألمانى " عمانويل كانت " المسيحى المعتقد ، يقول " إن تعاليم الدين كأقراص الدواء ان ابتلعت أفادت ، وإن مضغت كانت مرة المذاق " ولعل ما عاناه كانت بسبب سوق الكنيسة اياه وأمثاله ، الى الاعتقاد دون حرية أو تفكير ، هو الذى أجبره على صياغة مقولته .

ولم يكن " كانت " فقط صاحب المأساة بل كل يهودى أو مسيحى يقاد الى مقصلة الاعتقاد جبرا ، وانيها يساق قهرا ، ويعمل تجار الدين على ادخال عقائد هم الى أتباعهم قسرا ، تحت مسميات متعددة الألوان ، مثل تعاليم الدين لايجب أن تفهم"، ومثل : خذ وأنت أعمى ، ومثل : هكذا تعلم ، مما دعى المفكرين الأحرار الى اذكاء نيران الثورات على الكنيسة والمعبد فى كل العصور ، وكان منهم الضحايا ومن كل الأعمار ، وليس ببعيد ما طالعه العالم من ثورات المحتجين ، والتى نشأ عنها البروتستانت .

بيد أن الباحث فى الاسلام ، يجد مخالفة واضحة لكل ما سبق ، فلا قسر فى أعتقاد ولا اكراه على ايمان ، ولا ضغوط فى الرزق ، ولا محاولة ابادة العمر مما جعل الشاعر الرقيق " يوهان ولفجانج جوته " يقول :

من حماقة الانسان فى دنياه   أن يتعصب كل منا لما يــراه

واذا الاسلام كان معناه أن لله التسليم

فإننا جميعا نحيا ونموت مسلمين (١)

---

(١) الاستاذ / عبد الرحمن صدقى ـ الشرق والاسلام فى أدب جوته كتاب الهلال العدد ١٩٥ ص ٣٥ لسنة ١٩٦٧

ورغم أنه خشى سلطان الكنيسة الا أنه ذرّ التراب فى وجوه القوم عله ينجو من مخالبهم ، ولعل جوته بعد مطالعته للقرآن الكريم ، أصدر حكمه الماضى ،ونحن هنا نطالع بعض الآيات القرآنية لعلنا نصل بها الى مسامع الزمان ، فيتكرر الموقف ويظهر ألف جوته فى بلاد الغرب .

الآية الأولى : قال تعالى :

" لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ " (١)

أقوال بعض المفسرين :

— قال الامام الخازن :

" لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ " أى دين الاسلام ليس فيه اكراه عليه ، " قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ " — يعنى ظهر ووضح وتميز الحق من الباطل ، والايمان من الكفر ، والهدى من الضلالة بكثرة الآيات والبراهين الدالة على صحته " فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ " يعنى الشيطان ، وقيل هو الساحر والكاهن ، وقيل هو كل ما عبد من دون الله تعالى ، وقيل كل ما يطغى الانسان فهو طاغوت من الطغيان " وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ " ويصدق بالله أنه ربه ومعبوده من دون كل شىء ، كان يعبده ، وفيه اشارة الى أنه لابد للكافر أن يتوب ، أولاً عن الكفر ، ويتبرأ منه ثم يؤمن بعد ذلك بالله ، فمن فعل ذلك صح ايمانه ، وهو قوله تعالى ، فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى — السبب الذى يوصل الى رضا الله تعالى ، وهو دين الاسلام " لَا انْفِصَامَ لَهَا " أى لا انقطاع لها حتى تؤديه الى الجنة ، والمعنى ان المتمسك

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٦

بالدين الصحيح ، الذى هو دين الاسلام ، كالمتمسك بالشىء الوثيق ، الذى لايمكن كسره ولا انقطاعه ، "وَاللَّهُ سَمِيعٌ " — يعنى أنه تعالى يسمع قول من كفر بالطاغوت وأتى بالشهادتين "عَلِيمٌ " بما فى قلبه من الايمان وقيل معناه سميع لدعائك اياهم الى الاسلام " ، عليم بحرصك على اسلامهم " (١)

— وقال أصحاب التفسير الوسيط :

" لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ " لا اجبار ولا قسر على الايمان " الرُّشْدُ " الصواب أو الهدى أو الحق (الْغَيّ) الخطأ أو الضلال أو الباطل (بِالطَّاغُوتِ) الشيطان أو كل ذى طغيان ، أو كل معبود سوى الله " بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى " ما يتعلق به ، كالمقبض والوثقى مؤنث الأوثق وهو الأشد الأحكم ، لا انفصام لها ومن المعنى : لاينبغى أن يحتاج عاقل الى الاكراه على دين الاسلام ، لوضوح أدلته فعليه أن يتجه اليه باختياره ، والمعنى العام — لاتكرهوا (معشر المسلمين) أحدا على الاسلام ، لأن الحق فيه واضح بَيِّنٌ لايحتاج الى اكراه أحد عليه " (٢)

— وقال صاحب تفسير الجلالين :

" لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ " على الدخول فيه ، " قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ " أى ظهر بالآيات البينات ان الايمان رشد ، والكفر غى ، نزلت فيمن كان له من الأنصار أولاد ، اراد ان يكرههم على الاسلام ، " فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ " الشيطان

---

(١) تفسير القرآن الجليل المسمى لباب التأويل فى معانى التنزيل ج ١ ص ٢٢٦

(٢) تفسير الوسيط الحزب الخامس ج ١ ص ٤٣٤ ، ٤٣٥ لجنة من العلماء بتصرف مجمع البحوث الاسلامية ·

أو الأصنام ، وهو يطلق على المفرد والجمع ، "وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ" "تمسك" "بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى" "بالعقد المحكم" "لَا انْفِصَامَ لَهَا" "انقطاع" "وَاللَّهُ سَمِيعٌ" "لما يقال" "عَلِيمٌ" "بما يفعل" (١) .

— وقال الامام ابن كثير :

" لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ " أى لاتكرهوا أحدا على الدخول فى دين الاسلام فانه بين واضح جلى دلائله ، وبراهينه ، لايحتاج الى أن يكره أحد على الدخول فيه ، بل من هداه الله للاسلام ، وشرح صدره ، ونور بصيرته ، دخل فيه على بينة ، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره ، فانه لايفيده الدخول فى الدين مكرها مقسورا " (٢)

وقد ذكر الامام ابن كثير فى أسباب نزول الآية ، وجوها كثيرة ، كلها تؤدى الى أنه لااكراه لأحد على الدخول فى دين الاسلام ، وتأويل الآيات التى تنهض أمام هذا الرأى ، بأنها فيمن امتنع عن دفع الجزية ، فى الوقت الذى تظله دولة الاسلام وتحميه ، وما يزال على سابق معتقده ، ومن يعمل على اشاعة الفوضى داخل دولة الاسلام ، من هنا كان قتالهم ، لتأمين الدولة من جانبهم والعمل على كسر شوكتهم حتى تظل دولة الاسلام ، كما هى عامرة بالله وبالاسلام والقرآن والسنة ، ثم ساق الامام ابن كثير بقية تفسيره للآية على هذا النحو :

" فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ " أى من خلع الأنداد والأوثان ، وما يدعو اليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله ، ووحد الله فعبده وحده ، وشهد أن لا اله الا هو ، فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى — أى فقد ثبت فى أمره ، واستقام على

(١) تفسير الجلالين جـ١ المطبعة الأزهرية ص ٢١

(٢) تفسير القرآن العظيم المجلد الأول ص ٤٥٩ الشعب .

الطريقة المثلى ، والصراط المستقيم ، وقوله ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ ، أى فقد استمسك من الدين بأقوى سبب ، وشبه ذلك بالعروة الوثقى ، القوية التى لا تنفصم فهى فى نفسها محكمة قوية مبرمة وربطها قوى شديد ، ولهذا قال ، ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ، لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ . وهذا قول أبى القاسم البغوى" (١) ومن أراد المزيد فليرجع الى تلك الصفحات .

وأورد الامام الخازن فى سبب نزول هذه الآية أقوالا أربعة :

١ ـ أنها نزلت فى أولاد الأنصار كانوا مع اليهود فى المدينة ، فلما جاء وقت اجلاء بنى النضير عنها ، أراد الأنصار استرداد أولادهم من اليهود فقال الرسول صلى الله عليه وسلم للأنصار ، خيروا أولادكم ، فان اختاروكم فهم منكم ، والا فأجلوهم معهم .

وفيه من حرية العقيدة ما فيه ، فلا يقف عند حد عدم الاكراه ، بل يتعداه الى حماية المعتقد المخالف ما لم يكن فى الأمر ، أنه تعلق بهم (٢) خطر على الأمة المسلمة ، لا من حيث اعتقادهم ، وانما من حيث وجودهم مع اليهود الذين شنوا حملات عدائية على دولة الاسلام ، من أول وهلة ، وكانوا عيونا لأعدائها عليها ، كما كانوا عونا ، وقد نقضوا كل عهد ، وقطعوا كل مودة ، وغرسوا أشجار العداوة ، من هنا كان اجلاؤهم نهاية لحرب وقائية ، قام بها جيش الأمة الاسلامية .

٢ ـ انها نزلت فى رجل من الأنصار ، كان له ولدان متنصرين قبل البعثة وقدما المدينة مع واحد من النصارى ، وأراد الرجل الانصارى ادخالهما فى

---

(١) المرجع السابق ص ٤٦٠

(٢) وقد تأكد خطر يهود بنى النضير على المسلمين فكان لابد من اجلائهم ، وبخاصة بعد أن صار تآمرهم على المسلمين أمرا مطردا وفى ازدياد .

الاسلام ، لأنه عز عليه أن يرى أولاده في النار ، فنزلت الآية ، وتركهما الأنصارى ، وعلى هذين الوجهين تكون الآية غير محكمة الدلالة مع أنها محكمة النزول .

٣ ـ أنها نزلت فى أهل الكتاب ، الذين يدفعون الجزية ، فلا يكرهون على الدخول فى الاسلام ، وتكون الآية بهذا الوجه محكمة الدلالة كما أنها محكمة النزول .

٤ ـ أن الآية منسوخة بآية القتال ، وهى قوله تعالى : " وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً " (١) ، بعد أن أصر المشركون على قتاله صلى الله عليه وسلم ، وهذا القول منسوب لابن مسعود والزهرى .

ونحن أميل الى أن الآية " وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً " وغيرها من آيات القتال والجهاد لا ينسخ آية ـ لا اكراه فى الدين ـ وذلك للآيات القرآنية ، التى أمرت بالمعاملة الحسنة داخل الجماعة المسلمة لمن غير المسلمين ، ولوقوع الاجماع على ذلك ، حتى فرض عمر رضى الله عنه لمسن غير مسلم فى دار الاسلام ما يكفيه مؤنته وقال : نكون ظلمناه ان أكلنا شبابه وتركناه فى مشيبته ، وبالتالى جعل له فى دار مال المسلمين نصيبا يكفله ، رغم أنه غير مسلم ، لكنه أيضا غير محارب ، ولا تخشاه دولة الاسلام ، وكان يدفع الجزية يوم أن قدر عليها ، أو فرضت عليه .

وقال الامام أبو السعود فى فهم الآية : لا اكراه فى الدين ... الآية " ان من حق العاقل أن لا يحتاج الى التكليف والالتزام ، بل يختار الدين الحق ، من غير تردد وتلعثم " (٢) ، ثم ذكر روايات عدة ، وانتهى الى ما أبانه عجز الآية من أن المؤمن بالله وحده ، هو الفائز بعقيدته الظافر فى دنياه وآخرته .

أما الامام الفخر فقد أطنب فى فهم الآية وأطال ، ثم انتهى فى المسألة الثانية الى تأويل الآية ووجوه تأويلها فقال " المسألة الثانية فى تأويل الآية

---

(١) سورة التوبة الآية ٣٦

(٢) الامام ابو السعود محمد بن محمد العمارى ـ ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم جـ ١ ص ٢٤٩ ـ دار احياء التراث العربى .

وجوه ، أحدها : وهو قول أبى مسلم والقفال ، وهو الأليق بأصول المعتزلة معناه أنه تعالى ما بنى أمر الايمان على الاجبار والقسر ، وانما بناه على التمكن والاختيار ثم احتج القفال على أن هذا هو المراد ، بأنه تعالى لمّا بيّن دلائل التوحيد بيانا شافيا قاطعا للعذر ، قال بعد ذلك ، انه لم يبق بعد ايضاح هذه الدلائل للكافر عذر فى الاقامة على الكفر ، الا أن يقسر على الايمان ويجبر عليه ، وذلك مما لايجوز فى دار الدنيا التى هى دار الابتلاء ، اذ فى القهر والاكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان ، ونظير هذا قوله تعالى " فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ " ، ومما يؤكد هذا القول ، أنه تعالى قال بعد هذه الآية ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ، يعنى ظهرت الدلائل ووضحت البينات ولم يبق بعدها الا طريق القسر والالجاء والاكراه ، وذلك غير جائز لأنه ينافى التكليف ، فهذا تقرير هذا التأويل " (١) .

ثم ذكر وجهين آخرين ، واختلاف الفقهاء فى الدلالة للآية ، وكلها أقرب الى البيان والتوضيح وأذكى لبيان الاسلام ووضوح عقيدته فى حرية الاعتقاد .

— وقال صاحب تنوير المقباس فى تفسيره للآية :

" لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ، لايكره أحد على التوحيد ، من أهل الكتاب والمجوس بعد اسلام العرب قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ، الايمان من الكفر والحق من الباطل ، ثم نزلت فى منذر بن ساوى التميمى ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ، وبأمر الشيطان ، وعبادة الأصنام ، ويؤمن بالله ، وبما جاء منه ، فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ، فقد أخذ بالثقة بلا اله الا الله ، ولا انفصام لها — لا انقطاع لها ولا زوال ، ولا هلاك ، ويقال لا انقطاع لصاحبها عن نعيم الجنة ، ولا زوال عن

---

(١) الامام أبو عبدالله محمد بن عمر بن حسين القرشى — التفسير الكبير ص ١٤ ، ١٥ جـ ٧ — دار احياء التراث العربى .

الجنة ، ولا هلاك بالبقاء فى النار ، والله سميع لهذه المقالة (عليم) بثوابها ونعيمها " (١) .

من تلك الأقوال المفسرة ، التى ذكرت فى معنى الآية الكريمة ، يتسنى للباحث أن يقول مطمئنا ، ويعلن مفاخرا ، ان دين الاسلام ، دين عام عالمى خالد ، يتيح للناس جميعا حرية دخولهم فيه فيكفل لهم السعادة ، ويحقق لهم الأمان المرتجى ، كما يوفر لهم الأمن السليب ، اذا اعتقدوه ويحرص على حياتهم ويصون أموالهم وأعراضهم ، اذا احتموا به أو استجاروا ، طالما أنهم لم يكونوا شوكة فى ظهر المسلمين ، ولا عينا ولا عونا لعدو الاسلام عليهم ، وأن يؤدوا — الجزية التى بها يدافع عنهم جند المسلمين ، وتكفل لهم عند المشيب حياة كريمة من بيت مال المسلمين ، رغم أنهم فى اعتقادهم مخالفون .

" وعلى هذا المبدأ (حرية الاعتقاد) سار المسلمون فى معاملاتهم وحروبهم ، مع أهل الأديان الأخرى ، فكانوا يبيحون لأهل البلد الذى يفتحونه أن يبقوا على دينهم مع أداء الجزية والطاعة للحكومة ، (المسلمة) القائمة ، وكانوا فى مقابل ذلك ، يحمونهم ضد كل اعتداء ، ويحترمون عقائدهم وشعائرهم ومعابدهم " (٢)

---

(١) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٣٦ ط دار الأنوار المحمدية .
(٢) الدكتور / على عبد الواحد وافى — الحرية فى الاسلام — دار المعارف بمصر ص ٦٠ سلسلة اقرأ .

الاية الثانيـــــة : قال تعالى :

" وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ٠٠٠٠ الاية (١)

قال صاحب (تنوير المقباس) :

"وقل لعيينة بن حصن الفزارى ، الذى نزلت فيه هذه الاية ـ الحــق ـ لا اله الا الله ـ من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ـ هذا وعيد من اللــه تعالى ٠ويقال ٠فمن شاء فليؤمن ٠ يقول من شاء له الله الايمان آمن ، ومــن شاء فليكفر ، من شاء الله له الكفر كفر ، انا اعتدنا للظالمين ، لعيينة واصحابة (نارا) أحاط بهم سرادقها (سرادق النار) يحيط بهم ،وان يستغيثوا (للغصة بالماء) يغاثوا بماء كالمهل ، كدرى الزيت، ويقال كالفضة المذابة فى الحــرارة ، يشوى الوجوه ، ينضج الوجوه ، بئس الشراب وساءت مرتفقا ، منزلا يقول بئــس الدار دارا رفقاؤهم الشياطين والكفار ٠ (٢)

وقال الامام الفخر الرازى :فى الأية مسائل ٠المسألة الاولى ، فى تقرير النظم وجوه : الاول :أنه تعالى لما أمر رسوله بأن لا يلتفت الى اولئك الاغنياء ، الذيـن قالوا ان طردت الفقراء أمنا بك٠قال بعده ٠وقل الحق من ربكم "أى قل لهــؤلا ء ان هذا الدين الحق ، انما أتى من عند الله ، فان قبلتموه عاد النفع اليكــم وان لم تقبلوه عاد الضرر اليكم ، ولا تعلق لذلك بالفقر والغنى ، والقبح والحســن والخمول والشهرة "٠ (٣)

---

(١) سورة الكهف الآيــة ٢٩
(٢) تنوير المقباس ص ٤٤ ٠
(٣) التفسير الكبير جـ ٢١ ص ١١٨

ثم ذكر رحمه الله عليه وجهين آخرين فى المسألة الأولى ، كلاهما يؤكد أن الدين الحق هو ما جاء من عند الله ، على لسان رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه جاء ليحرر الانسان من عقيدة البطلان ويأخذه الى عقيدة الصواب والحق والاحسان .

وقال الامام البيضاوى فى فهم الآية (وقل الحق من ربكم ... الآية)

" وقل الحق من ربكم ، الحق ما يكون من جهة الله لا ما يقتضيه الهوى .. فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، لا أبالى بايمان مَنْ آمن ، ولا كفر مَنْ كفر ، وهو لا يقتضى استقلال العبد بفعله ، فانه وان كان بمشيئته ، فمشيئته ليست الا بمشيئة (١) الله تعالى ، لأنه لا ينفذ فى الكون شىء الا بارادته وتصرفه ومشيئته تعالى .

وهناك مَنْ فرّق بين المشيئة والارادة الالهيين ، على أساس أن المشيئة فيها معنى انفاذ الفعل على سبيل التمام ولو كان فى صورة الجبر مستدلين بقوله تعالى " وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ " (٢) وقوله تعالى " وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ " (٣) وربما كان ذلك من فهمهم لقوله تعالى : " ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ " (٤) والأمر على هذا فيه المشيئة .

أما الارادة الالهية ففيها معنى الاختيار ، لأنها صفة تخصيص لا تنفيذ ، ولكن لا يقع فى ملك الله الا ما يريده سبحانه وتعالى ، على سبيل الاستقلال فى

---

(١) الامام ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر الشيرازى البيضاوى ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص ٣٩١ دار الفكر بيروت .

(٢) سورة هود الآية ١١٨ (٣) سورة يونس الآية ٩٩

(٤) سورة فصلت الآيــة ١١

الارادة الكلية الشاملة ، أما ما يقع من العبد اختيارا فهو مراد من العبد يحاسب عليه ثوابا وعقابا ، ومراد من الله تعالى ، على معنى تمكين ارادة العبد منه وتهيئة الملابسات له ، حتى يعاقب على فعله أو يثاب .

وقال صاحب الأساس ، فى فهم الآية " وقل الحق من ربكم ... الآية "

" أى وقل بأن القرآن ، أو الاسلام هو الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، أى جاء الحق وزاحت العلل ، فلم يبق الا اختياركم لأنفسكم ما شئتم ، من الأخذ فى طريق النجاة ، أو فى طريق الهلاك ، وهو تهديد ووعيد شديدان " (١)

وذكر صاحب الدر المنثور عدة أقوال فى فهم الآية " وقل الحق من ربكم .. الى آخر الآية منها :

١ — أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله تعالى ، وقل الحق من ربكم " قال الحق هو القرآن .

٢ — وأخرج حنيش فى الاستقامة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الاسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله تعالى " فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، يقول من شاء الله له الايمان آمن ، ومن شاء الله له الكفر كفر ، وهو قوله تعالى " وماتشاؤن إلا أن يشاء الله رب العالمين " (٢)

٣ — وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، قال هذا تهديد ووعيد .

(١) الاستاذ / سعيد حوى — الأساس فى التفسير مجلد ٦ ص ٣١٧٥ — دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع .
(٢) سورة التكوير الآية ٢٩

٤ ــ وعن داود بن رافع أن مجاهدا كان يقول : فليس بمعجزى وعيد من الله (١)

من جماع تلك الآراء ، نجد أن الآية القرآنية الكريمة تقرر حرية العقيدة وتقرر أحقية المكلف فى اختيارها ، خاصة بعد أن وضح الحق من الباطل ، واستبان الهدى من الضلال .

وليس فى هذا أدنى إجبار لإلزام المرء بعقيدة لا ينشدها ، ولا بتعبئته بما لا يرتاح له عقله ، ولا يطمئن اليه فؤاده ، بل هى الحرية المطلقة فى اختيار المرء العاقل المكلف لعقيدته ، التى ارتاح اليها ، وتحطمت على نواصيها كل العقائد الأخرى ، بل وتهاوت أمام صلابتها أدلة الآخرين ، فراح ينظر الى ما يعتقد على أنه المثل الأعلى الذى يأمله ، والصرح الشامخ الذى يرى الكون من خلاله ، ويطالع الملكوت من فوقه ، ونظرة فاحصة تريك أن الاسلام فى اختياره ، لحرية المرء المطلقة نحو العقيدة كان أسبق الأديان اليها ، بل وأعمقها عند المقارنة بحيث إذا قابلت بين ما يهدف اليه الاسلام ، وما تدعوا اليه المذاهب والأديان وجدت فارقا لا يمكن تلافيه وخلافا لا يمكن تسويته ، وشقاقا لا يستطيع أحد أن يصلحه أو يوفق بينه .

والمرجع فى ذلك كله ، هو الفارق الواضح بين فكر المخلوق وهدى الخالق أو بعبارة أخرى ، بين عبادة المخلوقين ، والاتجاه نحو رب العالمين ، فالأول تمليه مصادر بشرية ، فيها من الضعف بقدر ما فيها من النقص ، ووجوه العجز والاحتياج ، والثانى ينزله مَنْ له الجلال والكمال ، رب العالمين ، بقدر ما له من جلال وكمال ، وصفات أفعال ، ولا شك أن الكامل ينزل الكمال لا بقدر ما يكون للعاجز من نقص واحتياج بل بقدر ما للكامل من أوجه الجلال والكمال وهو الله سبحانه وتعالى وتكون أوجه النقص فى غيره وذلك هو الفارق اللانهائى بين المخلوق والخالق .

(١) الامام عبد الرحمن جلال الدين السيوطى ــ الدر المنثور فى التفسير المأثور مجلد ٥ ص ٣٨٤ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

ويأتى سؤال لامحالة وارد هو : اذا كانت الحرية المطلقة لاختيار المـرء عقيدته مصانة بسياج من النصوص فى الاسلام ، فلماذا أجبر الاسلام النـاس على الدخول فيه وحاربهم حتى يعلنوه ، وفرق بينهم لكى يبقى ويسّود ؟

والجـواب :

أن الاسلام من أول أمره ، على لسان كل رسول لقومه — حتى رسول اللـه محمد صلى الله عليه وسلم — لم يجبر أحدا على الدخول فيه ، ومن يراجع نصـوص القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، يجد ذلك واضحا ، حيث كان كل نبى يحصـر مهمته ، فى دعوة قومه الى الحق والصدق ، ويناديهم بالتوحيد ، وتحقيـق العبادة فقال تعالى :

" أعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ، لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " الى غير ذلك من الآيات التى تؤكد أن الاسلام لم يجبر أحدا على الدخول فيـه طيلة عهده ، (١) ومن يدع غير ذلك فليأت بالدليل .

وسوف يعييه البحث عنه ولن يتمكن منه ، ولو أجتمع معه كل المفكرين وعقـلاء الخلق أجمعين .

(١) راجع الفصل الأول من هذا الكتاب .

الفصل الثانى

(حرية الاعتقاد ونفى الاكراه)

وردت آيات عدة فى القرآن الكريم ، تؤكد على حرية اختيار المرء العاقل لعقيدته ، ونفى الاكراه لكى يصل المرء الى عقيدته بطريق اختيارى يحاسب فيما بعد عليها ثوابا أو عقابا ، نختار بعضها ونذكر رأى المفسرين على سبيل الاستئناس

الآية الأولى :

قال تعالى : "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ " (١)

بيَّن الحق جل وعلا ، أن حرية الاعتقاد فى الاسلام مكفولة ، مادام غير المسلم يؤدى واجباته التى فرضها الاسلام عليه ، بحكم دخوله فى كنفه واستظلاله بظله ، من جزية ونصرة ، والتزام بما يمليه الشرع الاسلامى من قواعد ، وما يفرضه من أحكام .

ونبه سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ، الى أن اختلاف الناس فى الدين لا يعيدهم اليه سوط سلطان ، ولا سطوة قانون ، لأن هذه الدائرة الايمانية مردها الى مشيئة القادر جل وعلا ، فكانت الآية توجيها لصاحب الهدى النبوى وتذكيرا للمسلمين من بعده .

قال الامام الألوسى : فى فهم الآية "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ... " مجتمعين على الدين الحق ، بحيث لا يقع من أحد منهم كفر ، لكنه لم يشأ سبحانه ، فلم يكونوا مجتمعين على الدين الحق ونظير ذلك قوله سبحانه " وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا " وروى هذا عن ابن عباس ، وقتادة ، وروى عن الضحاك أن المراد لو شاء لجمعهم على هدى أو ضلالة ، ولا يزالون مختلفين بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل ، أخرج ذلك ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس ، ولعل المراد الاختلاف فى الحق والباطل من العقائد التى هى أصول

---

(١) سورة هود الآية ١١٨

الدين بقرينة المقام ، وقيل المراد ما يشمل الاختلاف فى العقائد والفـــروع وغيرهما من أمور الدين ، لعدم ما يدل على الخصوص فى النظم " (١)

وقال صاحب المنار : فى فهم الآيـــة :

" وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ ـ أيها الرسول الحريص على ايمان قومه الآسف على اعراض أكثرهم عن اجابة دعوته ، واتباع هدايته ، لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً " على دين واحد بمقتضى الغريزة والفطرة ، لا رأى لهم فيه ولا اختيار ، واذن لما كانوا هم هـذا النوع من الخلق المسمى بالبشر وبنوع الانسان ،..... وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، فى كل شىء حتى الدين ، الذى شرعه الله لتكميل فطرتهم وازالة الاختلاف بينهـــم ، إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ منهم فاتفقوا على حكم كتاب الله فيهم ، وهو القطعى الدلالة منه ، الذى لا مجال للاختلاف فيه ، وعليه مدار جمع الكلمة ووحدة الأمة " (٢) .

ولعل صاحب المنار ، الذى عُرِفَ بمعالجة قضاياه بنوع من الاستقراء ، فى ناحيته الاجتماعية ، قد عالج الفهم لهذه الآية الكريمة ، وبيَّن سماحة ديـــن الاسلام ، فى عدم اكراه أحد ، لتحل فى وجدانه عقيدة معينة ، وانما تتـــرك الانسان نفسه يعالج مسألة الاعتقاد بداخله ، من خلال سلطان ذاته الـــذى منحه الله اياه ، وحتى اذا اعتقد ما ليس مطابقا للحق والصواب ، كمن يعتقـــد عبادة النظريات أو الأجناس أو الأشخاص ، أو شىء من المخلوقات بعـــد أن بان له الحق ، واستقر أمامه الصواب ، فان الله لا يرغمه بفعل مشيئته تعالى ليدخل فى الاسلام ، ويصير مؤمنا بل يصرح له باستخدام ارادته الخاصة به ، وتشملها ارادة الله الكبرى ، ليتحقق له ما يريد فيحاسب به ، ويثاب عليه أو يعاقب ، من خلال قاعدة العدل الالهى ، التى تحددت بقوله تعالى : " فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ " (٣) .

(١) الامام أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى ــ روح المعانى ج١٢ ص١٦٤
(٢) الشيخ / محمد رشيد رضا ــ تفسير القرآن الحكيم مجلد ١٢ ص١٩٣ دار المعارف ببيروت . (٣) سورة الزلزلة الآيتان ٧ ، ٨ .

الآية الثانيـــة :

قال تعالى : " وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ " (١)

قال صاحب روح المعاني فى معنى الآية :

" وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ " تحقيق لدوران ايمان جميع المكلفيـــن وجودا وعدما على قطب مشيئته سبحانه مطلقا ، بعد بيان تبعية كفر الكفـــرة لكلمته ... أى لو شاء سبحانه ايمان مَنْ فى الأرض من الثقلين لآمن .. كلهـــم بحيث لا يشذ منهم أحد (جميعا) أى مجتمعين على الايمان ، لا يختلفون فيه لكنه لم يشأ ذلك " ثم ذكر رحمه الله المشيئة ، والنزاع حولها مما لا مجال لذكره الآن ، وانتهى الى قوله تعالى ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ " ... كأنه قيل : أربـــك لا يشاء ذلك فأنت تكرههم حتى يكونوا مؤمنين " (٢)

والناظر فى رأى العلامة الألوسى يرى أنه يميل الى اثبات ناحية عقديـــة تتعلق بالارادة الالهية ومظاهر المشيئة نحوها ، والذى انتهى اليه ، هو أن الله لم يجبر أحدا (بفعل المشيئة) على الدخول فى الاسلام واعتناق الايمان مع أنه الله الفاعل ، فهل لك أن تفعل أو تحاول ما لم يشأه الله ، من اكـــراه الناس على الدخول فى دين الاسلام ، والولوج الى ساحة الايمان ، ان هـــذا ليس لك ، ولو أن الله سبحانه وتعالى شاء لفعل .

---

(١) سورة يونس الآية ٩٩

(٢) روح المعانى جـ١١ ص١٩٣ ، ١٩٤ دار احياء التراث العربى بيروت .

من ثم فإن المحاولات المتكررة لادخال الناس الاسلام ، هى مجرد أمنية لاتحقق لها الا اذا شاء الله تعالى ، وهو سبحانه لم يشأ ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، وبالتالى بان أن القرآن الكريم ، وهو آية الاحتجاج ودستور الاسلام قد اكد على عدم اكراه أحد على الدخول فى الاسلام بدءا ، وانما يوضح له الاسلام وتشرح له تعاليمه فلعله تصيبه نفحات الله ، وينفتح قلبه لنوره .

وقال صاحب تفسير الجلالين فى فهم الآية :

" وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ — بما لم يشاء الله منهم " . حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (لا) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، بارادته ، وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ — العذاب عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ — يتدبرون آيات الله " (١)

وقال صاحب تنوير المقباس :

" وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ يا محمد ، لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، جميع الكفار أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ — تجبر الناس — حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ، وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ — كافرة — أَنْ تُؤْمِنَ — بالله — إِلَّا بِإِذْنِهِ وتوفيقه ، وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ — بترك التكذيب — عَلَى الَّذِينَ — فى قلوب الذين — لَا يَعْقِلُونَ — توحيد الله ، ويرى صاحب هذا التفسير أن الآية نزلت فى أبى طالب ، وقد حرص النبى على ايمانه ، ولم يرد الله أن يؤمن " (٢)

وعلى أى نحو كان سبب نزول الآية ، فان الذى لايرجح عندنا غيره ، هو أن الله سبحانه وتعالى قد كشف لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ولأصحابه من بعده ، والمؤمنين به فى كل عصر ومكان ، أنه عز وجل لم يعرض على الناس الايمان به ، على سبيل القسر والاكراه ، وانما وجههم اليه ، على نحو من الرغبة

(١) تفسير الجلالين جـ١ ص ١٣٩
(٢) تنوير المقباس ص ١٨٠

والاختيار ، وأنه يأمر رسله بغير ذلك ، انما كان كل رسول يناشد قومه الى الاعتقاد الصواب ، ويحاول أن يأخذ بهم الى دائرة اليقين ، كل ذلك برشد واصلاح ، وطرق بيان وايضاح دون جبر أو اكراه ..

وهكذا جاءت آيات الذكر الحكيم تترى ، كما راحت تعاليم الاسلام فى عقول النبلاء ترقى ، حتى انطلق بها العقلاء ، يحملونها الى المكلفين عامة وبالتالى فقد أبانت الآية عن واحد من أوجه الكمال فى الاسلام واستحقاقه السبق عند التسابق ، وأحقيته فى قيادة أمم الأرض قاطبة ، والمكلفين جميعا ، وهذا ما عرفه القاصى والدانى ، وكان من أسباب تلمسهم جميعا الدخول فى كنف الاسلام.

ومن سرف القول ، ما يردده أباعد العقلاء عن الاسلام ، من أن الأحاديث الصحيحة فيه ، توجب الدفاع المسلح ، وتجبر الناس على الانطواء تحت لوائه مثل قوله صلى الله عليه وسلم " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم ، الا بحقها وحسابهم على الله " وزاد ابن خزيمة " وأن محمدا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة " (١) .

وقوله صلى الله عليه وسلم " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها " (٢) .

وقوله صلى الله عليه وسلم " أمرت أن أقاتل الناس ، حتى يشهدوا أن لا اله الا الله ، ويؤمنوا بى ، وبما جئت به ، فاذا فعلوا ذلك ، عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها " (٣) .

---

(١) رواه البخارى ومسلم
(٢) اخرجه مسلم فى كتاب الايمان جـ١ ص ١٧٠ والبخارى جـ١ ص٧٥
(٣) رواه مسلم واخرجه .

أما لماذا نحكم على مثل هذا القول بأنه خيال جامح ؟

فالجواب :

أنهم لم يفطنوا الى بلاغة الحديث المبنى صدره على المجهول ، وبالتالى ينصرف العام فى لفظ الناس الى الخاص ، ويكون المعنى ، بعد أن صدعت بالحق الذى أمرنى به ربى لانقاذ الناس الذين هم أهل مكة وجيرانها — من ظلمات الجاهلية الضاربة فى الدمار ، الى النور الحق الصراح ، فان من ينكص على عقبيه منهم ، ويرتد عن دين الاسلام ، فلن يعيده الا القتال الذى هو بمثابة الصمام الأكيد الذى سوف يحفظ عليه حياته ، ويصون عليه دينه ، ولأمته بقاءها وكرامتها .

ثم أنهم لم يفهموا الغاية الناشئة بعد حتى ، فانها حاسمة فى عودة القطيع الضال ، الى رحابة الايمان ورجاحة الأحسان ، وذلك بدهى فى غاية البيان ، وآيات الذكر الحكيم ، قد أفاضت فى بيان هذا المعنى ، بل وأشادت أسس ذلك البنيان . (١)

الآيـــة الثالثـــة :

وهى سورة بأكملها من قصار سور القرآن الكريم " سورة الكافرون " والسورة تناولها المفسرون بالشرح والبيان ، كل بحسب توفيق الله له ، وقدرته على تحمل فيض الله القدير ، بحيث كانت الآية الاولى من السورة ، بمثابة الاستهلال الكامل لها ، وفرقت السورة كلها بين المؤمن وغيره ، فجعلت مَنْ فقهَ عن الله ورسوله ، واستجاب لنداء الحق فى وجدانه ، وصوت الضمير الحى فى

(١) راجع ص ٢٠ من هذا الكتاب — الفصل الاول وما بعدها .

قواه وبنيانه ، من جنس معين هو الجنس الراقى ، الفائز فى الدنيا والآخرة لأنه المؤمن بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا ، ومن نأى عن ذلك كان كافرا ، وتوجه النداء اليه على سبيل بيان الهوية ، والمحاورة الذكية ، ونذكر بعض ما قاله المفسرون للسورة ٠

١ — الامام محمد عبده :

قدم رحمه الله للسورة ببيان نوع الكفر ، وطبيعة الكافر ، ثم أنتهى الى أن الله تعالى ، أراد بهذه السورة " أن يقطع العلاقة بينهم (الكافرون) وبين ما عليه الداعى الى الحق صلى الله عليه وسلم ، بأصرح ما يمكن أن يصرح به فقال له (للنبى صلى الله عليه وسلم) قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ "أى أن الاله الذى تزعمون أنكم تعبدونه ، ليس هو الذى أعبده ، لأنكم انما تعبدون ذلك الذى يتخذ الشفعاء أو الولد ، أو الذى يظهر فى شخص ، أو يتجلى فى صورة معينة ، أو نحو ذلك مما تزعمون ، وانما أعبد الها منزها عن جميع ما تصفون به الهكم ، " وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ " أى أنكم لستم بعابدين الهى الذى أدعو اليه ، كما تزعمون ، فانكم زعمتم أن الذى تعبدونه يتقرب اليه بتعظيم الوسائط لديه ، فتوسلتم بها اليه ، وتعتقدون أنه يقبل توسطها عنده ، فهذا الذى تعبدونه ليس الذى أعبد ، فلهذا لاتعبدون ما أعبد بل تعصونه وتخالفون أمره (١) ومن يلاحظ أن السورة مكية ، وأنها محكمة الدلالة ، يجد العلاقة الواضحة بين الاسلام وما يدعو اليه من حرية المرء فى اختيار عقيدته ، وتفرقته من الوهلة الأولى بين المؤمن والكافر فى العبادة ، منهجا وغاية وسلوكا ، وأن الكافر قد ستر فضل الله عليه ، وعمل على طمس نور الايمان فى قلبه ، ليعلو على صفحة فؤاده دخان الكفر وتظهر على قسمات أعماله سمات الكافرين الجاحدين من تكبر وعناد ، ولجج ومخالفة ٠

---

(١) الاستاذ الامام الشيخ / محمد عبده — تفسير جزء عم ص ١٦٧ — ١٦٨ ط محمد على صبيح ٠

" وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ... أى ولا أنا بعابد عبادتكم " وَلاَ أَنْتُم عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ " أى ولا أنتم عابدون عبادتى ... فلا معبودنا واحد ، ولا عبادتنا واحدة ، لأن معبودى ذلك الاله الواحد المنزه عن السند والشفيع المتعالى عن الظهور فى شخص معين ، أو المحاباة لشعب ، أو واحد بعينه الباسط فضله لكل من أخلص له ، الآخذ قهره بناصية كل من نابذ المبلغين الصادقين عنه ، والذى تعبدونه على خلاف ذلك ، وعبادتى مخلصة لله وحده ، وعبادتكم مشوبة بالشرك ، مصحوبة بالغفلة عن الله تعالى . فلا تسمى على الحقيقة عبادة ، فأين هى من عبادتى ؟ لَكُمْ دِينُكُمْ . دينكم مختص بكم لا يتعداكم الىّ ، فلا تظنوا أنىّ عليه ، أو على شىء منه (وَلِيَ دِينِ) أى دينى هو دين خاص بى ، وهو الذى أدعو اليه ولا مشاركة بينه وبين ما أنتم عليه " (١)

ومما لا شك فيه أن الآية الكريمة ، وهى قوله تعالى " لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ " قد كشفت القناع عن وجوه أولئك الذين يرومون بالاسلام سوءا ، فيزعمون أنه فرض عقيدته بقوة السيف والسنان ، وأن محل الاعتقاد لم يكن له أدنى نصيب من الاختيار ، وأن من دخلوا فى الاسلام ، كانوا مهددين بحرمانهم من حق الحياة وكشفت كذلك عن بعض جهال الاسلام ، فى المشاكلة المحسوبة ، وكأن الله تعالى أراد أن يوجه رسوله صلى الله عليه وسلم ، الى الناس جميعا ببيان جلى فيه أن المؤمن لله ، وأن الكافر للشيطان وأن لكليهما الحق فى اختيار معبوده ، والحب للدين الذى يريده ، ثم هو فى الآخرة إما من الناجين لأنه مؤمن أو من الهالكين لأنه كافر ، عبد للشيطان الرجيم .

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٨

والكافر بلا شك مغضوب عليه من رب العالمين ، لأنه من " الذين خرجوا عن الحق بعد علمهم به ، والذين بلغهم شرع الله تعالى ودينه فرفضوه ولم يتقبلوه انصرافا عن الدليل ، ورضا بما ورثوه من القيل ووقوفا عند التقليد وعكوفا على هوى غير رشيد ، وغضب الله عقوبته وانتقامه " (١)

وقال صاحب المقباس فى هذه السورة :

. . . . . لَكُمْ دِينُكُمْ — عليكم دينكم الكفر والشرك بالله ، وَلِيَ دِينِ — وهو الاسلام والايمان بالله .

ويرى صاحب هذا التفسير ، أن الحكم فى هذه السورة ، نسخ بآيات القتال ثم انتهى الى أن النسخ لها وقع " ثم نسختها آية القتال ، وقاتلهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك "(٢)

وبعيدا عن قضية النسخ ، من حيث وجوده فى القرآن الكريم أو عدمه ، ومن امكان نسخ الحكم من عدمه ، فان هنالك أقوالا كثيرة ، ولجماعة من المفسرين وأغلبها يؤكد أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، راح يخبرهم بأنه غير متنازل عن دعوته ، وأن عليهم اتباعه ، ان كانوا يرومون الهداية غرضا شريفا ، والا فلهم دينهم وعليهم الوزر ، وله دينه ومعه الأجر وذلك على سبيل المشاكلة .

من هذا نخلص الى ما يلى

= أن حرية العقيدة مع نفى الاكراه ، سمة بارزة فى رحاب النصوص الاسلامية (القرآن الكريم ، والسنة المطهرة) بشكل لافت للفكر ، وهذ للعقل ومطمئن للوجدان ، بأن الاسلام لم يكره أحدا على الدخول فيه .

---

(١) الامام محمد عبده تفسير فاتحة الكتاب ص ٤٣ طبعة كتاب التحرير الشعب .
(٢) تنوير المقباس ص ٥٢١

= أن ذلك النوع من الحرية العقدية جذب نواصي الألباب نحوه ، وأغـرى العقول الفذة بمتابعته حتى انساقت نحوه ، يحدوها أمل في الظفـــر به ، والعيش في رحابه .

= أن تلك الحرية ساعدت على وجود روح إيمانية لدى المسلمين الخلص ، كانوا من خلالها النموذج الأمثل فمالت العقول نحوهم واستجابت الفطـر إليهم .

الفصل الثالث

(حرية الاعتقاد مع الترغيب والترهيب)

شأن الاعتقاد فى كل دين الالزام ، الا فى دين الاسلام ، فقد خاطب الله المكلفين فى القرآن الكريم والسُّنة المطهرة ، خطابا متعدد الوجوه ، فمرة يناديهم للاعتقاد فى النداء الفطرى ، الذى جبلوا عليه ، من حبهم لدين الله " فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا " (١) والمودعة فى الحديث الشريف " كل مولود يولد على الفطرة — وهى الاسلام — فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه " (٢) ولذا يجد العقلاء جميعا حنينا فى صدورهم يناديهم بأن الله واحد ، وأن الاسلام دين الحق ، ومحمدا خير رسل الله وخاتمهم ، وبعضهم يستجيب لثورة ضميره ، وأنين فؤاده ، وبعضهم يصارع ذلك كله ، تلبية لسطوة شيطان عنيد ، بيد أن نصوص القرآن الكريم ، ونصوص السنة المطهرة ، قد جذبت العقلاء بنوع من الهدوء الى التفكير الهادئ ، وتلك مرحلة ثانية تلى النداء الفطرى ، وهى حرية العقيدة مع بيان ماتفرزه العقيدة الصواب من ترغيب فى الخير ، يعود على صاحبه بالنفع كله ، فيهرع اليها القلق ويطمئن فى رحابها الخائف ، ويلوذ الى جانبها من يأمل عندها الخير ، ويعتقد فيها النجاة ، وذلك طريق الترغيب ، وقد جاءت آيات عدة لتوضح هذا الطريق ، وألفت كتب كثيرة لبيان فضل الاسلام فى تلك الناحية " (٣)

وناحية ثالثة ، وهى أن بعض المكلفين تقودهم شياطينهم فتصدهم عن الحق وذكر الله ، من هنا ينزلون الى بحار المعاصى يعبون منها ويجرعون ، فتأتى آيات القرآن الكريم ، والسنة المطهرة بأسلوب الترهيب الذى تقشعر منه القلوب ، وتلين (اذا فهمته) الصخور ، وقد أفاضت آيات الذكر الحكيم والسنة فى ذلك كثيرا من أشهرها ما ورد بنهاية الحديث القدسى " ياعبادى : انى حرمت الظلم على نفسى ... ياعبادى انما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه " (٤)

(١) سورة الروم الآية رقم ٣٠ (٢) اخرجه البخارى فى كتاب الجنائز جـ٣ ص ٢١٨
(٣) انظر الترغيب والترهيب . سند الامام احمد جـ٢ ص ٢٣٣ ومسلم جـ١٦ ص ٢٠٧
(٤) الشيخ / محمد المدنى الاتحافات السنية فى الاحاديث القدسية باب الياء .

بل انه غالبا ما يأتى الترغيب والترهيب فى القرآن الكريم ، والسنة المطهرة مقترنين ، حتى ليشعر القارئ أنهما يتواردان على محل واحد ، وأن المقصود من خلالهما ، هو تربية الفرد دينيا ، وتهذيبه سلوكيا ، وتنمية داخله بصورة مثلى تعود فائدة ذلك كله على صاحب الاعتقاد السليم نفسه ، وذلك لا يوجد الا فى الدين الحنيف — دين الاسلام .

وهناك ظاهرة بارزة فى أسلوب الترغيب والترهيب ، هى الاهتمام بالعمل والتركيز عليه ، لا على صاحبه ، باعتبار أن الفاعل مسئول عن ما يصدر عنه مادام فى تمام الحرية ، وكامل الاختيار ، ولعل ذلك اللون أبلغ فى الوصول الى المراد وأيسر عند تنازع الأفهام فى المعنى المقصود ، بحيث تجئ تلك الظاهرة على هذا النحو ، من ثَمّ ترى عظمة الاسلام ، وقد شملت نصوصه ، أفعال المكلف ، ورسمتها أمامه بل جعلتها كأنها تحدثه وتسر اليه ، حتى يهرع الى الترغيب فيأخذ به ، ويهرب من الترهيب فينجو منه ، فهل وجدت مثل ذلك فى غير دين الاسلام ؟

واليك بعض النصوص :

قال تعالى . مصورا بعض مشاهد يوم القيامة ، يوم الفزع الأكبر :

" يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ " (١) ولا شك أنه تناول هنا نتيجة ما قدم المرء من عمل ، سواء فى جانب الخير أو جانب الشر .

قال تعالى : " إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا "(٢) وترتب الاحسان على مثله من جانب المكلف وربه ، فيه من الضمانات ما لا يكفله غيره جل وعلا ، وكذلك ترتيب

---

(١) سورة الزلزلة الآيتان ٦ ، ٧ ، ٨

(٢) سورة الاسراء الآية ٧

النهاية السيئة على فعل السوء ، وفى ذلك أبلغ دليل على العدل الالهى ، الذى وعاه باطن الفيلسوف الفرنسى ديكارت ، فألهمه فكرة الصدق الالهى ، فى تأملاته التى طاف بها أرجاء الدنيا ، متصورا وأتباعه أنه ملهم ذاتى ، ولو تأمل المسلمون وغيرهم كيف كان الترغيب والترهيب فى القرآن الكريم ، ميزانا صادقا لقضية العدل لهرع الأولون الى دينهم يفاخرون به ، ولقبع الآخرون قريبا منه لعل نفحة من نفحات المولى تصيبهم ، فتحولهم الى مسلمين بالله موحدين .

قال تعالى :

" وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ " (١)

قال صاحب صفوة التفاسير فى معنى الآية :

" هذا من تتمة كلام موسى ، أى واذكروا أيضا حين أعلم ربكم اعلاما لا شبهة فيه ، لئن شكرتم أنعامى لأزيدنكم من فضلى ، ولئن كفرتم ان عذابى لشديد " أى ولئن جحدتم نعمتى بالكفر والعصيان ، فان عذابى شديد ، وعد بالعذاب على الكفر ، كما وعد بالزيادة على الشكر " (٢)

ورغم أن كلمات الآية قليلة ، غير أنها حملت لبنات بناء عملاق ، الا وهو بناء الترغيب فى الزيادة القائم على مجرد مخالطة الايمان شغاف القلوب ، حتى تتحرك العقول والجوارح تبعا لقاعدة الجزاء التى وجدت فى رحاب الاسلام ، فتنطلق النفوس من عقالاتها ، لتجلب المزيد من الشكر ، حتى يتحقق لها القدر الأوفى من الزيادة .

---

(١) سورة ابراهيم عليه السلام الآية ٧
(٢) الشيخ / محمد على الصابونى — صفوة التفاسير جـ ٧ ص ٩١

ومن المعلوم بداهة ، أن شكر المنعم يزيد النعمة ، ونكرانها يبيدها ، فما بالكم لو أن مصدر النعمة هو من لاتنفد خزائنه ؟ ألا يتأكد لكل ذى حجى أن المنعم سوف يزيدها بما يناسب فضله ويستملى شكره ، وقديما نشأ فهم عند أرباب الفهم الخالص ، مفاده ، أن الكريم يعطى بحكم مكرمته ، والميسور يمنح بحجم ميسرته ، ومن هنا فان الزيادة التى تعود على العبد المؤمن بالله تعالى المحافظ على أوامره ونواهيه ، سوف تغمره بحيث لايخالجه المزيد بحال ، وذلك هو الترغيب .

ثم يأتى بناء الترهيب مترتبا على شرط الترغيب معطوفا عليه ، يقوم على أن ستر النعمة الكبرى وهى الايمان بالله تعالى ربا ، وبالاسلام دينا ، وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رسولا — أعنى الكفر بالله عاقبته وخيمة ، ونهايته أليمة اذ أن تلك النهاية ، هى العذاب الأليم ، الذى من شدته تنضج الجلود وتذوب العظام . ولعل هذا ما أشار اليه القرآن الكريم فى قوله تعالى :

" إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا ، كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا " (١)

واكده قوله تعالى :

" أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ، فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ " (٢)

---

(١) سورة النساء الآيتان ٥٦ ، ٥٧

(٢) سورة الزمر الآية ٢٢

وقوله تعالى :

" فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ ، وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ، وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ، لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ، ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ " (١)

ومثل ذلك كثر وروده في القرآن الكريم ، بحيث اذا رغب باحث في أن يخصص للترغيب والترهيب (من ناحية العقيدة) في القرآن الكريم بحثا ، لكان له من مجموع الآيات القرآنية — في هذا الصدد — بناء ضخم يجوب من خلاله الآفاق الرحبة للعقيدة الاسلامية ، الصافية القرآنية ، حتى يتأكد له بكل ثقة أن ما تمليه النصوص القرآنية أكفأ بلا حدود من غيرها .

وقد تهافت ساقط في هذه الآونة ، يدعى م . د . رحماتوف ، وكان سفيرا لروسيا الشيوعية في دولة موريتانيا ، فألف وهما أسماه " هل يمكن الاعتقاد بالقرآن ؟ وهو قليل الصفحات اذ يصل عدد صفحاته الى السبعين ، وقد نشرته له وكالة شيوعية تدعى " وكالة نوفوستي للأنباء ، ورغم أنه متهافت ووهمه كذلك الا أنهم يحاولون نشر أضاليلهم على المجتمعات الاسلامية الفقيرة في افريقيا واسيا ، تحت اسم التنوير لا الاحتلال ، وقد هم بالهجوم على القران الكريم ، كعادة السفهاء ، وحاول النيل منه — تعالى الله عن قوله — بحجة أنه لا يترك الناس أحرارا في شيء ، وانما يملي عليهم الاكراه ويدخلهم فيه جبرا الى غير ذلك من ترهاته الباطلة ، ومن حسن الحظ أن أخا فاضلا هو الاستاذ / عبد الله كنون ، قد تكفل بالرد عليه فجزاه الله عنا والاسلام خير الجزاء . (٢)

---

(١) سورة الزمر الآيات ٣٢ / ٣٥

(٢) تفضل الاستاذ / عبد الله كنون باصدار كتابه " الرد القرآني على كتيب هل يمكن الاعتقاد بالقرآن ؟ — ونشرته رابطة العالم الاسلامي عام : ١٤٠١ هـ — ١٩٨١م .

الآية الثانية : قوله تعالى :

" وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ " (١)

فى هذه الآية تعلق الشرط بالجواب ، وهى من قصص القرآن الكريم المشهورة ، حيث تحدثت عن جانب من قصة نبى الله سليمان بن داود مع ملكة سبأ بلقيس ودعوته اياها لتوحيد الله تعالى ، والدخول فى كنف طاعته ، وتوفيق الله له وتمكينه من الانس والجن والطير ، على سبيل الاستخدام والمعاونة وكذلك الريح وغيرها ، مما يعرفه غالبية تلاميذ المكاتب فى القرى المصرية ، فى محاولاتهم الدءوب حفظ القرآن الكريم .

قال صاحب صفوة التفاسير فى هذه الآية :

" وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ " أى ومن شكر فمنفعة الشكر لنفسه ، لأنه يستزيد من فضل الله ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ " أى ومن لم يشكره جحد فضل الله فان الله مستغن عنه وعن شكره ، كريم بالانعام على من كفر نعمته " (٢)

ولعل فى الشرط الاول من الآية ، ما يؤكد على قاعدة الترغيب التى تعلق فيها الشرط بالجواب على وجه البيان ، وأن شكر النعمة لا يعود على المنعم بفائدة ، وانما ترجع الى من استفاد بالنعمة على وجه الاحتياج ، وبالتالى فاما أن يشكر وذلك أمره معروف ، فالعود عليه مترتب بلا حدود .

أما فى الترهيب ، ومن كفر فان القاعدة أفصحت عن جمال بلاغى فى النص القرآنى حيث جاء سياقها أن الجواب ليس مرتبطا على وجه الخصوص كما فى الشرط الاول وجوابه ، وانما فصلت الآية بين تعلق المنفعة بصاحبها ، وانصباب الكفر كذلك عليه ، وفى هذا من الترهيب ما لا يفطن اليه الا أولوا الألباب النيرة .

---

(١) سورة النمل الآية ٤٠

(٢) الشيخ / محمد على الصابونى — صفوة التفاسير جـ ١١ ص ٤٠٩ ، ٤١٠

فضلا عن أن الآية وضحت ما يلي :

١ ــ مسئولية المرء عن كل ما يصدر عنه ، وعليه يجزى بالخير خيرا ، وبالسوء مثله
٢ ــ عدم استغناء المخلوق المكلف (وغيره) عن عطف الله تعالى وفضله ، مهما كان ميزانه من حيث الثقل أو عدمه ، وعلو قدره ، وذيوع شهرته أولا . في الدنيا والآخرة .

٣ ــ حددت بوضوح استغناء الخالق عن كل ما يصدر من مخلوقاته في جانب الخير لأنه راجع الى أنفسهم ، لا يستفيد الله منه بشيء ، وبالتالي فلا مكان للجبر ولا حاجة مطلقا الى الاكراه .

٤ ــ سمو الباري ، وانطباق سائر كمالاته عليه ، من كل الوجوه التي تنم عن الكمال الالهي ، وتصفه على أكمل نحو من الأنحاء التي تليق به جل وعلا ، وذلك من قوله تعالى " فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ " .

من ثَمَّ فإن منازع العقول ، ومدارك الأفهام ، تلتقي معا على قاعدة عامة وتلك القاعدة هي ما يجب أن يتعمق فيه الفكر ، ويبحث فيه النظار ، ويترسم خطاه أصحاب السياسات العليا في بلادهم ، من جعل العقيدة الأرضية ــ القانون الوضعي ــ في كهف النسيان ، وأن تبرز مرة أخرى في شكل تطبيقي " عقيدة القرآن لترتاح البشرية المكدودة من عناء ما تلاقيه ، من خراب ذمم ، وهلاك أمم ودمار سلوك ، وانحدار فكر ، وانحطاط أخلاق ، ولن يكون للبشرية أنيس يسامرها ، وقائد يرشدها ، أو هاد يصل بها الى مراقي الفلاح ، الا اذا رفعت راية التوحيد ، والتزمت بعقيدة خاتم النبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم علما وعملا ، قرآنا وسنة ، فكرا وسلوكا .

ولا ريب أن أمة الاسلام فى حاضرها الميمون ، لهى أحوج ما تكون لمراجعة سجلات ماضى الأمجاد ، من عصر النبوة والراشدين ، حين راحوا يبلغون شريعة الله الى كل الأقطار ، ورغم قلة عددهم ، وضآلة عدتهم ، كان النصر باذن الله حليفا لهم ، يقودهم فى ذلك ، دين الله القويم وما عرفت بلادهم ذل الأعداء ولا هانت هاماتهم تحت أقدام الطواغيت البشرية ، وماخضعت وجوههم الا لله الواحد القهار ، وكانوا بحق مشاعل هدى ومعرفة بالقرآن الكريم والسنة المطهرة .

ولم يكن دينهم — كما يدعى البعض — وقفا عليهم ، يرتلون نصوصه ، ثم اذا غفت العيون وجفت المدامع ، وهدأت الجنب ، توارى مارتلوه مع غياب شمس يومه بل كانوا يحفظون وحى الله ويستظهرونه ، لأنه أعذب ما طربوا له ، وأشف ماعرفوه ، وأثبت ما ألقى عليهم ، وأبلغ ما عرضوا له ، ثم هو مع ذلك كلام رب العالمين .

ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل راحوا يطبقون أحكامه ، الصلاة على وقتها والزكاة فى نصابها والعبادات كلها كما شاءها خالقها ، لايلوون فى شئ منها ولا يعملون على السؤال الملح فى ناحية من نواحيها ، وما كانت أسئلتهم الحائرة الا علامة على صفاء قلوبهم ، ونقاء عقيدتهم ، وسلامة سرائرهم ، فكانت حياتهم كلها ، وحيا يتلى ، وسلوكا عمليا يطبق ، فى المعاملات كما فى العبادات ، والأخلاق والآداب العامة .

وقد وعت حوافظهم قوله تعالى فى الحديث القدسى " عبدى أطعنى تكن عبدا ربانيا تقول للشئ كن فيكون " وراحوا من آن لآخر يعملون على طاعة الله ، التى تجلب لهم محبته تعالى . فكانوا بحق ربانيين ، اذا تحدثوا استمع القوم لهم بل وانجذبوا نحو حديثهم ، ويكفى أن يلجأ اليهم الغالب الأعم (١) واذا حكموا نزل القوم أجمعون على رأيهم ، ايمانا منهم بأن أتباع خاتم النبوة صورة مثلى للنزاهة فى الرأى والعدل فى الحكم ، والخوف القوى من رب العالمين .

---

(١) كالحال مع مصعب بن عمير حين بعثه الرسول لأهل المدينة يعلمهم أمور دينهم قبل أن يهاجر الرسول اليهم .

حتى قد ورد الحديث ببيان فضلهم فقال عليه السلام ، " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " وقال عليه السلام : " رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره " بل ان ذلك الصفاء والتسليم لله رب العالمين هو الذى وهب عمر بن الخطاب تلك المنح الالهية ، حيث يخاطب قائد جنده على بعد المسافة بينهما ، ويشاهد عمر جيش المسلمين فى المأزق الحربى ، ويوجه قائد جنده من فوق المنبر ، ويسمع قائد الجند التوجيه ، وكأن أمير المؤمنين بجوار ، وينحاز الجيش نحو الجبل ، فيقع العدو فى حيلته التى بذل فيها كل مجهود له وينهزم جيش الشرك وينتصر جيش الايمان ، لا بأعداد اضافية تدخل المعركة ولا جسر جوى ينقل من خلاله العتاد ، ولا أساطيل تجارية تحمل فى أحشائها الخراب بدل العمران ، وتنقل الى ميادين السرر الحرب بدل السلم ، تحت اسم من الأوهام ، وانما كان الالهام الالهى ، فينادى عمر أمير المؤمنين قائد جنده ، وعمر بالمدينة يخطب الجمعة ، وسارية بأرض العراق ، يقاتل فلول الخارجين على الدين والمحادين له ينادى عمر = سارية الجبل .

ويصغى سارية فقد نقل عمر من دائرة البشر العاديين ، الى دائرة المقربين الربانيين — فتسقط موازين الضغط ، وتتعطل معايير الصوت والضوء ، ويسمع سارية التوجيه ، فيلوذ الى الجبل ويتحقق النصر المؤزر باذن الله تعالى ولاشك أن حرية العقيدة فى الاسلام مع تحقيق المسئولية والجزاء فى الاسلام كواقع عملى ، جعلت أغلب الداخلين فى الاسلام ربانيين ، مما كان له كبير الأثر فى انتصار المسلمين فى صدر الاسلام عصر النبوة والراشدين ، رغم قلة أعدادهم وثقل العبء الملقى على كواهلهم .

الفصل الرابع

(حــــرية الاعتقاد مع بيـــان استغناء الخالق جل وعلا)

وهَمَ كثير من المكلفين ، أن الخالق الكريم ، تنفعه طاعتهم ، كما تضره معاصيهم ، وأنه أكرههم على الاعتقاد به لمزية العبادة له ، وغلب على أوهامهم أن الفاعل المختار الحكيم ، يقاس بالفاعل المكره الضعيف ، فما دام الثانى تقع له من الشكر فضيلة ، ويحل الحب لصنعته ــ فى قلبه = محل البغض ، فان الاول كذلك لافرق بينهما ، ما داما فاعلين قد تساوت وجوه الغاية من الفعل بالنسبة اليهما (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) . وربما وقعت أنظارهم على بعض آيات الذكر الحكيم ، فظنوها مؤدية الى فهمهم القاصر ، وربما دُعّم هذا الظن من خلال أقوال تنسب الى التفسير ، وهى لا تحمل أى معلم من معالم التفسير ، من ذلك قوله تعالى " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ، مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ " (١) ، وقد غلط بعض الناس فى أفهامهم حتى خيل اليهم أن الله لم يخلق الجن والإنس الا لعبادته ، التى هو فى حاجة اليها لاظهار جلاله ، وبالتالى فان أفعال الله تعالى ، فى هذا الشأن تكون معللة بعلة ، وراجعة فى غاياتها الى معنى كمالى يضيف للخالق جل وعلا كمالا هو فى رغبة اليه " تعالى الله عن ذلك .

ولست أنكر وجود خلاف عنيف ، وخطب جلل بين المتكلمين والمتفلسفة والمفسرين ، حول أفعال الله تعالى ، وكونها معللة أو غير معللة ، مما يملأ أسفارا ، وتنهك فى سبيل الوصول اليه قوى ، والمطالع لكتب الكلام والمرتاد لبحار الفلسفة ، أو المتأمل فيما تركه المفسرون ، وبعض لمحات المتصوفة يواجه ذلك الموقف رضى أو كره ويجد نفسه مكرها على الاستماع لأطراف الخصومة ومجبرا على مطالعة الأحكام التى أنشأها قضاة كل طرف . (٢)

---

(١) سورة الذاريات الآيتان ٥٦ ــ ٥٧

(٢) ذكر صاحب صفوة التفاسير فى تفسيره للآية الكريمة ــ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون " أى وما خلقت الثقلين الجن والانس الا لعبادتى وتوحيدى لا لطلب الدنيا والانهماك بها ، قال ابن عباس الا ليعبدون . الا ليقروا الى بالعبادة طوعا أو كرها وقال مجاهد الا ليعرفونى قال الرازى لما بين تعالى المكذبين ذكر هذه الاية ليبين سوء صنيعهم حيث تركوا عبادة الله مع أن خلقهم لم يكن الا للعبادة " صفوة التفاسير الشيخ محمد على الصابونى جـ ٢٧ وقد نسب القول الى تفسير القرطبى ١٧ / ٥٥ وتفسير الفخر الرازى ٢٨ / ٢٣٥

ورغم أن مجهودى متواضع فاننى أنفى تماما وجهة نظر من زعم احتياج الخالق جل وعلا لمخلوقاته كلها أو بعضها ، فإن البدهيات السليمة ، تؤكد أن الفاعل المختار ، لايكون محتاجا بوجه من الوجوه ، وهذا ما يجب أن يوصف به البارى جل وعلا ، لله رب العالمين " فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " (١)

وأرفض بشدة أن تكون أفعال الله تعالى معللة بعلة ، راجعة الى ذات البارى ، بما يفيد احتياجه لها سبحانه وتعالى ، أو أن تكون معللة بغاية تكمل ذاته الكاملة — حاشا لله — سواء كان فيها شكل الاحتياج أو تحقيق السعادة وعلى هذا نفسر الوجوه ، ولنا شواهد من القرآن الكريم ، والحديث القدسى والحديث النبوى ، وأقوال الأصوليين والمعتقد بهم فى مقام اثبات الكمال لله .

وأرى أن الله قد خلق الانسان ، وأمره بعبادته وحده الذى جعله مستعدا لها ومتمكنا منها ، لا أنه خلقه لعبادته ، وفرق بين المفهومين كما بين التعبيرين وكذلك كل مخلوق ، فإن أمْر الله له بالعبادة وارد لامحالة ، ولعل هذا ما أكده القرآن الكريم فى قوله تعالى " تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا " (٢) وقوله تعالى " ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ " (٣) وبالتالى فإن مايتبادر الى بعض الأفهام من أن الله خلق الجن والانس لغرض عبادته ، لايستقيم مع ما يهدف اليه الذكر الحكيم من

---

(١) سورة الجاثية الآيتان ٣٦ — ٣٧ .
(٢) سورة الاسراء الاية رقم ٤٤
(٣) سورة فصلت الايــة رقم ١١

الترقى فى الابداع ومخاطبة الأفهام بما يريد الملك العلام جل وعلا ، ويرى آخرون أن المعنى " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلا مستعدين لعبادتى متمكنين منها اتم استعداد وأكمل تمكن فالموفقون يعبدونه والمخزولون يعرضون عن عبادته " (١) .

من ثَمَّ فان من يزعمون أن الله خلق الانس والجن لقصر همهم على عبادة — راجعة فى غرضها الى الله ، قد وقعوا فى زعمهم مهما كانت منازلهم ، ودليلنا أن الكائنات جميعها أُمِرَتْ من قِبَل السميع العليم ، على سبيل الابتلاء فخضعت ولجاهه سبحانه ذلت ، " وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً "(٢) وذلك ما يفهم على نحو سليم من قوله تعالى " إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً " (٣) .

وهنا يسود فهم لبعض الأنظار من أن الأمانة هى التكاليف الشرعية ، ولست أدرى ما معنى التكاليف الشرعية ان لم تكن الجانب العملى من الدين الالهى ؟ من هنا فان التكاليف الشرعية ليست ملقاة على السماوات كجرم ولا الأرض من هذه الناحية لأنهما لم يدخلا ضمن دائرة المكلفين ، لعدم وجود العقل عندهما والا وجب عليهما من أركان الاسلام ما يجب على المكلفين وهذا ما لم يقل به عاقل .

وبالتالى فان أقرب فهم يزيل الالتباس هو أن الله أمر السماوات والأرض بأن تلتزما بطاعته وتوحيده تعالى فلم تؤثرا الالتزام ، لأن الله تعالى ، أودع فيهما ما يجعلهما فى تعلق دائم بحب الله ، والمحب دائما رهين اشارة محبوبه ، أما الانسان فقد أمره الله بعبادته وتوحيده فتأخر فى قبول هذا الأمر الالهى فكان بمثابة حمل على كاهله يقوده الى الاستغفار طلبا لدفع الذنب وطمعا فى عفو الرب وعلى هذا يمكن تجلية كل ما يأتى فى هذا الاتجاه .

---

(١) الدكتور / محمد ابوالنور الحديدى عصمة الانبياء والرد على الشبه الموجهة اليهم ص١٢ مطبعة الامانة ١٣٩٩هـ ١٩٧٩ م .

(٢) سورة طه الاية رقم ١١١ (٣) سورة الاحزاب الاية رقم ٧٢ .

الآية الأولى : قوله تعالى :

" إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ، وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ " (١)

قال صاحب صفوة التفاسير فى معنى الآية :

" إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ " أى ان تكفروا أيها الناس ، بعد ماشاهدتم من آثار قدرته وفنون نعمائه ، فإن الله مستغن عنكم وعن ايمانكم وشكركم وعبادتكم ، ولا يرضى لعباده الكفر "أى لا يرضى الكفر لأحد من البشر ، قال الرازى : أشار تعالى الى أنه وان كان لا ينفعه ايمان ، ولا يضره كفران الا أنه لا يرضى بالكفر ، بمعنى أنه لا يمدح صاحبه ولا يثيبه عليه ، وان كان واقعا بمشيئته وقضائه " وأن تشكروا يرضه لكم " أى وان تشكروا ربكم رضى هذا الشكر منكم ، لأجلكم ومنفعتكم لا لانتفاعه بطاعتكم ، قال أبو السعود : عدم رضائه بكفر عباده لأجل منفعتهم ودفع مضرتهم رحمة بهم ، لا لتضرره تعالى بذلك ، ورضاه بشكرهم لأجلهم ومنفعتهم لأنه سبب فوزهم بسعادة الدارين ، ولهذا فرق بين اللفظين فقال ، ولا يرضى لعباده الكفر " وقال هنا يرضه لكم ، لأن المراد بالأول تعميم الحكم ثم تعليله بكونهم عباده " (٢)

ثم فصّل تعالى فى قضية العدل القول ، وبين أن كل أمرى يحمل على ظهره وزره " ولا تزر وازرة وزر أخرى " أى ولا تحمل نفسى ذنب نفس أخرى ، بل كل يؤاخذ بذنبه ، ثم الى ربكم مرجعكم ، أى ثم مرجعكم ومصيركم اليه تعالى

---

(١) سورة الزمر الآية ٧

(٢) الشيخ / محمد على الصابونى — صفوة التفاسير ج٣ ص٧١ ، ٧٢ ط دار الرشيد — سوريا — حلب ، وراجع رأى الرازى ج٢٦ / ٢٤٦ ، وأبى السعود ٤ / ٣٠٢ نقلا عن المرجع السابق .

فينبئكم بما كنتم تعملون ، أى فيحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم ، انه عليم بذات الصدور ، أى يعلم ما تكنه السرائر وتخفيه الضمائر ، وفيه تهديد للعاصى وبشارة للمطيع " (١)

وفى هذا بيان واضح ، فى عدم احتياج الخالق لعبيده ، وقد تكفل لهم بحرية اعتقاد ، يثابون عليها ، أو يعاقبون بها ٠

ولعل فى اتيان الآية مصدرة بالشرط ، ومجىء الجواب مؤكدا بأكثر من مؤكد دلالة قوية على ما نحن بصدد بيانه ، من أن الله تعالى منح العباد حرية الاعتقاد ، وأنه تعالى غنى تمام الغنى عن عبادتهم مهما كانت صورتها ، ينبئك عن ذلك ، قوله تعالى " فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ، وحيث حمل الجواب هذا الحمل فجاء بالجملة الاسمية مزينة بدايتها بلفظ الجلالة ، المسبوق فى الترتيب بحرف التأكيد " ان " وكان يكفى فى الجواب فهو غنى عنكم ، الا أن الاعجاز القرآنى يستلهم التأكيد والاعجاز معا ، كما كان يكفى فى الجواب قوله تعالى فالله غنى عنكم ، ولكن حتى لا يقع فى الأفهام لبس ، أو فى الأذهان زيغ ، جاء الجواب ليقطع كل حجة ، وليقضى على كل حيلة ٠

فتأكد بحرف التوكيد " فان " وبالجملة الاسمية ، الله غنى ثم جاء الضمير المجرد حاملا معه العبء الأكبر ، فى بيان ما تهدف اليه الآية ، حتى كأنه الخاتم النهائى للحكم فى القضية ، وجاء غنى بدون أل التعريفية لأمرين :

الأمر الأول :

أن التنوين جاء عوضا عن التعريف ، بناء على أن التنوين يكون عوضا عن أل فى الاسم المفرد ، اذا توافرت له شروطه ، وبالتالى يكون المعنى على هذا النحو ، والله أعلم ، ان تطمسوا جمال الايمان الفطرى فى قلوبكم ، وتعملوا على

---

(١) المرجع السابق ج ٤ ص ٧٢

اخفائه بغير ما أمركم الله به ، ولم يأتكم خبر من عند الله بمخالفته ، فان ذلك يوقعكم حتما فى معصية الله ، وهى الكفر به جل وعلا .

ولن يكون كفركم محلا للنظر ، لأنكم من الضآلة بحيث تنعدم القيمة ، والله صاحب السلطان الكامل والملكوت أجمع ، وهو ذاته عظيم غنى ، بحيث لا يحيط بعظمته وجبروته وسعة سلطانه إلا هو جل وعلا ، وهو ليس محتاجا لأعمالكم كلها لأنه مستغن عنكم أنتم ، فما بال العمل ؟ فكأنه تعالى أراد أفهام العقلاء أنه تعالى غير محتاج للكون كله ، فكذلك لا يحتاج لأعمال أهله وهم أقل من الكون فاذا استغنى بذاته عن الكون فمن باب أولى قد أستغنى عن أعمال أهله .

الأمر الثانى :

أن الغنى اسم من أسمائه الحسنى — جل وعلا ، وقد تأتى معرفة بأل كما تأتى بدونها ، وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم ، كان يناجى ربه بقوله ياغنى ياغفور ياعفو ثم ان القاعدة العربية تجيز ذكر الأعلام بدون أل ، قال ابن مالك رضى الله عنه :

وبعض الأعلام عليه دخلا	للمح ما قد كان عنه نقلا
كالفضل والحارث والنعمان	فذكر ذا وحذفه سيان .

وعلى هذا الأمر يكون المراد — والله أعلم — ان تكفروا فهذا شأنكم وعقابه واقع عليكم ، لا لأن ايمانكم يحتاج الله اليه ، كلا بل ان الله غنى تمام الغنى عن طاعتكم وأنفسكم ، وان العقاب واقع لأنكم عصيتم ، والعقاب على العصيان لا على أن عبادتكم لغير الله ، تجعل فى ملكه تعالى نوعا من النقصان .

ثم جاء الاحتراس فى الآية ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولعل عباده الذين قُصدوا فى عدم تحقق الكفر منهم ، أو تمكينه اياهم ، هم العباد المخلصون ،

الذين فطنوا لعبادة خالقهم ، وعملوا على ترقيق مشاعرهم بذكره ، وتهذيب دواخلهم بطاعته ، فلم يكن للشيطان عليهم من سبيل ، وهم الذين استثنوا من الاضلال باعتراف ابليس فيما حكاه القرآن الكريم " قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ " (١)

ثم هدفت الآية الى التلويح بالترغيب ، وأن الدخول فى كنف الرحمن أقرب وفى طاعته أيسر ، وأن الشكر يزيد النعم ، يشهد لذلك قوله تعالى " لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ " (٢) فقال تعالى : " وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ، فهو جل وعلا لا يرضى لعباده أن يكفروا ولئن كفروا ليعاقبنهم على مخالفة أمره وان هم شكروا لربهم وأطاعوه ، فانه تعالى تفضلا يجازيهم بشكرهم زيادة فى منحه وعطاياه ، ثم بين جل وعلا ، أن كل امرئ مسئول عن ماكسبت يداه ، وأن المرجع اليه وحده ، وأنه جل وعلا لاتخفى عليه خافية ، وأنه فى وقت ما سوف تنشر الصحف وتستخرج السرائر ، ولا ينفع المرء الا ماقدمه من عمل صالح ، وتفضل المولى عليه.

الآيـــة الثانية : قوله تعالى :

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا " (٣)

والنداء فى صدر الآية يشعر بالغرض مباشرة ، ثم انه نداء عام لكل النـاس، من كل الأجناس من هنا فان الناظر اليه يدرك لأول وهلة أن عمومية النداء قامت على عمومية الدين ، وشمولية الدعاء ، ثم ان ذكر الرسول بالتعريف بعد النـداء

(١) سورة ص الآيتان ٨٢ ، ٨٣
(٢) سورة ابراهيم عليه السلام الآية ٧
(٣) سورة النساء الآية ١٧٠ .

يؤكد ضرورة تلازم المنادى والغرض من النداء ، ونعنى به حرية الاعتقاد مع دفع حاجة الخالق لايمان من توجه اليهم النداء ، وهو استغناء المولى الكريم عن الغرض من عبادة المخلوقين ، ثم ان مجئ الحق معرفا كذلك مع بيان جهة بعثه وارساله تدعيم قوى وسلوك أكيد جياش ينبئ عن كمال الخالق وعدم احتياجه الى عبادة أى من مخلوقاته جميعا ٠

ثم ان الاية قد حملت بالنداء والترغيب والترهيب ، واستقلال الكمال الالهى بالعلم والحكمة وسيطرة المالك على كل ملكوته ، ورصد لمعالم الخير ، وتذكير بالجوانب السيئة فى جوانب الشر ، وفى فهم الآية يقول صاحب " صفوة التفاسير " " أى يا أيها الناس قد جاءكم محمد بالدين الحق والشريعة السمحة من عند ربكم ، فآمنوا خيرا لكم ، أى صدقوا ما جاءكم من عند ربكم يكن الايمان خيرا لكم ، وان تكفروا فان لله ما فى السماوات والأرض " أى وأن تستمروا على الكفر فان الله غنى عنكم لايضره كفركم ، اذ له ما فى الكون ملكا وخلقا وعبيدا ، وكان الله عليما حكيما ، أى عليما بأحوال العباد ، حكيما فيما دبره لهم " (١) وهم لاينفعونه ان هم جميعا آمنوا ، كما لايضرونه ان هم جميعا كفروا ، ولقوله تعالى فى الحديث القدسى " ياعبادى انكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى " ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا ، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئا " (٢)

وقد أفاضت آيات الذكر الحكيم ، فى بيان مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتأكيد على بشريته والحث على الايمان به والابتعاد عن الكفران وذلك

---

(١) الشيخ / محمد على الصابونى ــ صفوة التفاسير جـ٢ ص ٣٢١ المطبعة العربية الحديثة بالقاهرة ٠
(٢) الشيخ / محمد المدنى ، الاتحافات السنية فى الاحاديث القدسية باب الياء والحديث أخرجه مسلم عن أبى ذر رضى الله عنه ٠

مثل قوله تعالى " قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا " (١)

وكما أفاضت الآيات فى بيان مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد أفادت بأن من يتبع الرسول صلى الله عليه وسلم هم الناجون من عذاب النار ، الواقعون تحت عطف الله وكرمه ، الناظرون لوجهه الكريم ، كل ذلك ببيان جلى ، يوضح الاختيار العقدى " قُلْ لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " (٢)

وهكذا تأكد لأصحاب العقول النيرة ، والقلوب الواعية ، الحاملة تاج المعرفة بالله " أن الله تعالى لم يكلف رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يجبر المشركين على الدخول فى الاسلام ، طالما كانوا بعيدين عن تيار العنف ضد الاسلام ، وليسوا عينا على المسلمين من أعدائهم ، ولم يفتح المسلمون بلادهم وأن هذا شأن رسل الله الصادقين جميعا ، الذين تؤيدهم معجزات يجريها الله تعالى على أيديهم . تصديقا لهم فى دعواهم ، وتحقيقا لكل ما من شأنه أن يجمع الصادقين حولهم .

وثمة شيء مهم نوجه اليه ، ونلح عليه هو :

أن الله تعالى لايحتاج الى طاعة شيء من مخلوقاته ، مهما عظمت أو قلت وأنه تعالى لايتضرر بمعصية الكون كله ، وذلك ما يشهد له قول المولى جل وعلا " يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ، إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ، وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ " (٣)

---

(١) سورة الكهف الآية ١١٠
(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٨
(٣) سورة فاطر الآيات ١٥ — ١٧

سـؤال مردود :

اذا كانت الغاية من العبادة (فى كل صورها) خير راجع الى أصحابها أنفسهم ، وقد رضوا الهلاك ومارسوا ما يقربهم اليه ، فلماذا نلح على فكرة تعبيد الناس لخالقهم العظيم ، طالما أنه لا يستفيد بطاعتهم ولا يتضرر بمعاصيهم ولماذا أكثر من ارسال الرسل ، وانزال الكتب ، وبث الشرائع والعمل على أن تكون ملائمة لأحوال الناس وظروفهم ؟

والجـواب :

إن فكرة الالحاح هذه غير مطروقة ، انما الذى نؤكده هو العمل على طاعة أوامر الخالق العظيم فى الاقتراب من الخير وممارسته ، واجتناب الشر وبواعثه ، ثم ان هذه الفكرة المطروحة (العمل على طاعة الله) هى أساس من حيث أن المخلوقين لا يعرفون تماما ما يصلح لهم ، بحكم أنهم خلق ناقص ، لا يعرفون عن الغيب المجهول شيئا ، وفى طيات الغيب ما يجهلون ، فطاعة الأمر الالهى تفتح لهم ما هم فى جهل كامل به .

ثم ان الخالق يعلم عللهم وطرق معالجتها ، فهو أعلم بصنعته " أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ " (١) ثم هو جل وعلا قد كرم تلك الصنعة وأحاطها بكل ما يدل على كمال الصانع ، حتى جعله المتكلمون دليلا على وجود خالقه فقالوا ان الصنعة تدل على الصانع ، وسمى بدليل الأثر ، وبالتالى فان تلك الصنعة الصنعة الالهية ، تفضل المولى الكريم عليها ، بالعقل والرسل والكتب لعلهم يحفظون للصنعة بهاءها فينعمون بجزيل العطاء من رب العالمين .

---

(١) سورة الملك الآية ١٤

اما الاكثار من ارسال الرسل ، فبجانب أن القاعدة الاسلامية بالنسبة للفاعل المختار رب العالمين جل وعلا أنه " لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ " (١) الا أننا عند الخروج من دائرة السؤال الى دائرة الاستفهام نقول ان ارسال الرسل فيه من الخير العام ما يدل على كمال حكمة الحكيم ، واحاطة علم العليم ، ومثله انزال الكتب ، وتعدد الشرائع بما يناسب كل أمة من الأمم ، وذلك كله تفضل منه سبحانه وتعالى " فلا واجب يلزمه ، ولا كمال يوجبه ، ولا حكمة على رب العالمين تستوجبه ، فهو من الله فضل ، ونوع من الامتياز يتفضل به الخالق على بعض مخلوقاته والامتياز راجع لا الى حاجة فى المخلوقات وانما لحكمة يراها الخالق رب العالمين جل وعلا .

وعلى أية حال ، فان مثل هذا السؤال فى ميزان الفكر موجود ، وفى قواعد الشرع مرفوض وعلى دين صاحبه حتما مردود ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وقد استمر الخلاف (قديما وحديثا) بين المتكلمين (٢) والفلاسفة فى الحكمة من ارسال الرسل ، وكل أدلى فى المسألة بدلو ، وان كنا نرى أنها أبسط من أن يُخْتَلَفَ حولها أو يَسْتَعِرَ الخلاف فيها ، فالفاعل المختار لا يسأل عما يفعل ، وعلينا الالتزام ، ان رضينا بدين الاسلام ، ونحن رضينا به بحمد الله وعلى المخالف أن يبحث ويسأل .

---

(١) سورة الأنبياء الآيـة ٢٣

(٢) راجع كتب الكلام فى النبوات وحاجة البشر الى الرسالة وكذلك كتب الفلاسفة ولديك المواقف والمقاصد والعقائد العضدية والمغنى والأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار والشامل فى أصول الدين لامام الحرمين ، الى غير ذلك وتهافت الفلاسفة ومقاصد الفلاسفة وغير ذلك من الكتب الفلسفية والكلامية مما يطول ذكره .

الفصل الخامس

حرية الاعتقاد مع:

أ – مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ب – تأمين المخالف .

أ ـ حرية الاعتقاد مع بيان مهمة الرسول فى التبليغ

أسرفت ديانات كثيرة فى ايجاد وسيلة جذب لأنصارها ، لانحصار تلك الوسائل فى فرض ذلك الدين أو تلك النحلة ، بحيث يساق الأنصار الى مقصلة الاعتقاد ، بقضيب من سلطان الكاهن ، أو خشية الحرمان من بركات القس، أو خوف صدور قرار باستنزال لعنات الرب أو التلويح بغضب الشعب .

وظلت تلك قاعدة عامة ، لدى أصحاب الديانات غير المتصلة الى السماء بسند حتى بان للجميع افلاسها ، بل وصل الأمر ببعضها الى عرض تعاليمها فى سوق البخس ، وبأثمان زهيدة مما جعل الكثيرين (من اتباعها وغيرهم) ينظرون اليها على أنها فقدت جاذبيتها ، ولم تعد قادرة على استيعاب الأسئلة العقدية التى تجول بخواطر من ظنوا أنفسهم لها أتباعا ، فضلا عن مواجهة الاجابة عليها .

من ثم برز الداعون لها والمرسلون بأسمها ، وحاولوا جذب القطيع الضال الى حظيرة الاعتقاد خالعين على أنفسهم أثواب القداسة ، مشاركين البارى جل وعلا فى صفاته ، مدعين أنهم أبناؤه أو على أقل تقدير أحباؤه ، ولما كان هؤلاء المرسلون (ادعاءً) يعيشون فى تاريخ ملئ بالخطايا والآثام ، ويرتكبون من المعاصى ما هو من عادة اللئام ، فلم تقبل عليهم أممهم ، كما لم يصلوا الى غرضهم بل انفضوا عنهم وحاربوهم .

بيد أن الاسلام حين جاء ، أقبل الناس على رسوله ، فاذا هو لا يدّعى لنفسه أكثر من أنه بشر يوحى اليه من الله تفضلا (١) وأنه تنحصر مهمته فى التبليغ(٢)

(١) من ذلك قوله تعالى : " قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا سورة الكهف الآية ١١٠ .

(٢) من ذلك قوله تعالى : " وان ما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب " سورة الرعد الآية ٤٠ .

ثم هو قبل ذلك كله ، الأمين على الأموال والأعراض والأسرار ، الذى لم يقترف اثما ، ولم يشارك فيه ، لذا اندفعوا اليه يواصلون معه الدعوة الى الله فى رجاحة وثبات ، معتقدين أنه نبى كريم ، يقوم فى قومه بالتبليغ (١) وهذا ما نحن بصدد بيانه .

الآية الأولى : قوله تعالى :

" فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ، إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ " (٢)

قال الامام محمد عبده " فى تفسيره للآية :

" فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ " إن الفطرة سائقة بنفسها الى الاعتقاد بصانع قادر وهى ميسرة بذاتها الى الاذعان بأنه قادر على انشائها فى خلق آخر ترى فيه شقاء أو نعيما ، وانما قد تتحكم الغفلات ، وتغلب الأهواء ، فتحتاج النفوس الى مذكر يردها الى ماكان عساه تنساق اليه غرائزها ، لهذا سمى الله هذا النوع من الاستدلال تذكيرا ، وقوله " إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ " تحديد للأمر الذى بعث الله لأجله نبيه صلى الله عليه وسلم ، وهو تذكير الناس بما نسوه من أمر ربهم ، وليس فى سلطانه عليه السلام ، أن يخلق الاعتقاد فيهم ، ولا من المفروض عليه أن يقوم رقيبا على قلوبهم ، كما قال تعالى : لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ، وقال تعالى : وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ . . . .

---

(١) نعنى بقومه صلى الله عليه وسلم ، أمة المكلفين من الثقلين ، لوجوب الاعتقاد بذلك .

(٢) سورة الغاشية الآيات ٢١ — ٢٤

وأكد رحمه الله على أن هذه الآية غير منسوخة ، وكان له فهم طيب في استدلاله فقال " قال بعض المولعين بالنسخ والتغيير ، إن هذه الآية نسخت بآيات الجهاد ، لأن الجهاد شرع في الاسلام لقهر النفوس على الاعتقاد وخفى على القائل (بالنسخ) أن القهر لا يُحْدِثُ ايمانا ، وأن الاكراه لا أثر له في الدين ، وأن الجهاد ينقطع وجوبه متى خضع المحارب لأداء الجزية مع بقائه على دينه ، ان كان يهوديا أو نصرانيا أو مجوسيا ، في رأى الأكثر ، ومن البديهى أنه لا حاجة الى القول بالنسخ ، فان النبى عليه السلام ليس بمسيطر على قلوب الناس سواء كان محاربا لهم أو مسالما (١) .

وهكذا بيّن رحمه الله ، أنّ مهمة الرسول بيان عقيدته وتبليغها للناس وهم أحرار فيما يعتقدون ، وأن من اعتقد الحق والتزم به فقد أفلح ، ومن تولى عنه كرسول وكفر بالدين الحق فالله المالك القوى سيعذبه عذابا في الدنيا يتناسب مع كفره ، ثم يقابله في الآخرة العذاب الأكبر ، والله بهم أكفل .

الآيــة الثانية : قوله تعالى :

" فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ " (٢)

---

(١) الامام محمد عبده — تفسير جزء عم ص ٧٥ طبعة محمد على صبيح .

(٢) سورة آل عمران الآية ٢٠ .

قال صاحب " صفوة التفاسير " :

" فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ " أى ان جادلوك يا محمد فى شأن الدين فقل لهم ، أنا عبدالله قد استسلمت بكُلّيّتي لله ، وأخلصت عبادتى له وحده ، لاشريك له ولا ند ، ولا صاحبة ولا ولد ، " ومن اتبعن " أى أنا وأتباعي على ملة الاسلام ، مستسلمون منقادون لأمر الله ، " وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ " أى قل لليهود والنصارى والوثنيين من العرب " أَأَسْلَمْتُمْ " أى هل اسلمتم أم أنتم باقون على كفركم ، فقد آتاكم من البينات ما يوجب اسلامكم " فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا " أى فان أسلموا كما أسلمتم ، فقد نفعوا أنفسهم بخروجهم من الضلال ، الى الهدى ، ومن الظلمة الى النور ، " وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ " أى وان أعرضوا فلن يضروك يا محمد ، اذ لم يكلفك الله بهدايتهم وانما أنت مكلف بالتبليغ فحسب، " وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ " أى عالم بجميع أحوالهم فيجازيهم عليها " (١)

ولا شك أن تلك الآية المحكمة الدلالة ، قد أكدت فى بيان واضح ، أن حرية الاعتقاد من البداية مكفولة ، وأن مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم البلاغ والبيان والتوضيح ، والأخذ بأيدى راغبي الهداية الى مواطنها ، ولعل هذا ما يؤكده قوله تعالى " فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ " (٢) ، كما بينت مهمة الرسول التكليفية ، وأنه بشر يعمل على إرضاء رب العالمين تحت مهمة التكليف التى نيطت به ، واختصه الله تعالى بها ، دون غيره من سائر المكلفين .

---

(١) الشيخ / محمد علي الصابونى ـ صفوة التفاسير جـ ٢ ص ١٩١ ، ١٩٢

(٢) سورة الغاشية الآيتان ٢١ ، ٢٢

أجل ، إن دين الاسلام قد كرم الانسان ، ومنحه حرية الاعتقاد ، وهي تعطي الانسان القدرة ليعرف قيمة نفسه وحجمها الحقيقي ، فيبقى رصيده في اطراد مستمر ، ويعمل على تنمية مواهبه ، وتزويد ملكاته ، ولهذا جاء دين الاسلام ليحقق تلك الأمنية ، في عالم ضحاياه بلا حدود ، وحرية أفراده مكبلة بأغلال من حديد .

ولا شك " أن الفرد اذا اعتقد يقينا بحريته ، شعر بقيمته الذاتية وكرامة انسانيته ، وأحس بأنه مكرم على سائر مَنْ في الأرض من حيوانات أعطيت قوة أكبر من قوته الجسدية ، وفي اعتداد الانسان بذاته (من ناحية العقيدة القويمة) ما يجعله يترفع عن الدنايا وسفاسف الأمور ، لأن الشخص الذي يعتز بذاته لا يرتكب ما يقلل من شأنها ، وانما الغالب على مرتكب الرذائل ، والأمور القبيحة أن يكون صغير الشأن عند نفسه " (١)

وقد تغنَّى بالاسلام وسعته ، من ذاقوا آلام الأديان الأخرى (الوضعية) واكتوا بلهيب أصحابها ، الذين فرضوا من أنفسهم على اتباعهم ديونا لاتقضى واتاوات لاتنتهي ، وضرائب تنوء عن حملها المُزْنُ السَّيارة ، فلما أقتربوا من الاسلام ، ولمسوا جلال نصوصه ، وبهاء عقيدته ، وكمال شريعته ، هبوا للانضمام تحت لوائه ونصرته ، يذبون عن ساحته ، ويرفعون لنبيه منزلته وكرامته ويصونون في كل حال أمره .

ولعل تلك المشاعر الطيبة ، والملامح النيرة ، قد أهاجت عواطف البوصيري فهتف من أعماقه

---

(١) الدكتور / أحمد عبدالخالق ، الاسلام والفكر المنحرف ص ١٨ جـ ١ — دار الهدى للطباعة .

مَنْ غير أحمد جاء يحمد ربه	حَمْدا جديدا بالمزيد كفيلا
وكتابه ذا ليس يطفأ نوره	والحق منقاد اليه ذليلا
خصم العباد بحجة الله التى	أضحى بها عذر العدى مبتولا
فرحت به البرية القصوى ومَنْ	فيها وفاخرت الوعور سهولا (١)

سؤال غير لطيف :

يزعم بعضٌ من أهل الحقد واللجج ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نشر دينه بالسيف .

والجواب :

أنه مما تجدر الاشادة به ، والاشارة اليه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين بعثه الله الى قومه (بداية) ليبلغهم تعاليم الله اليهم ، وأن رب العالمين قد بعثه فيهم ، فى قوله تعالى " وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ، وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢) كان مهيأ لتلك المهمة محملا بما خلعوه هم (قومه) عليه من أوصاف ، وذلك ما دفع بأغلب العقلاء بادئ الأمر الى متابعته ، وتحمل العناء معه ، ومشاركته صلى الله عليه وسلم شظف العيش من تلك الأوصاف .

— الأمانة :

لقّبه قومه صلى الله عليه وسلم بينهم بالأمين قبل البعثة ، الأمين على المال الأمين على العرض ، الأمين على الودائع ، الأمين على العقول والألباب ، الأمين

---

(١) أ. الشيخ /أحمد فهمى — لامية البوصيرى ص٤٨ ، ٤٩ ط حجازى بالقاهرة
(٢) سورة الشعراء الآيات ٢١٤ ، ٢١٦

على كل شيء عندهم ، ولم يطلب منهم صلى الله عليه وسلم ، أن يصفوه بها ، بل كانت مخلوعة عليه من جانبهم ، فلما أعلن على ملأمنهم أنه رسول الله اليهم ، تبعه مَنْ فتح الله عليه ، وعصاه مَنْ أخذه الشيطان من يديه ٠

ـ الصـــدق :

لم تعرف العرب شخصا اجتمعت فيه صفات الكمال البشرى ، إلا فى شـــخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو عندهم (بحكم معاملته) اذا قال صُدِّق ،واذا حدث كان الصدق حديثه ، واذا نصح واذا استشير لم تغلبه نزعة بشرية ، ولـــم تخالطه نزوة فكرية حتى عُرف بالصادق الأمين ، بحيث اذا قيل الصادق ، فهـــم المستمع أنه رسول الله ، واذا قيل الأمين كان كذلك ٠

ـ الحكمـــة :

ولا تعرف الحكمة فى شخص الا اذا اختبر ، وهم فى تجديد بناء الكعبة قـــد اختلفوا الى حد الاستعداد الكامل للحرب ، حتى يظـفر ممثلوا قبيلة ما بالشـرف الذى يناله مَنْ يحمل الحجر الأسود ليضعه فى مكانه ، ثم يأتى صوت عاقـل تقـض مضجعه نيران الحرب التى اذا نشبت لاتبقى ولا تذر ، ويحكِّمون أول داخل عليهم فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يعترضوا عليه ، لأنه الصادق فيهــــم الأمين عندهم ، فلاشك أنه سيكون الأمثل فيهم ، ويحكم بينهم فيحمل الممثلـــون للقبائل الحجر جميعا ، وقد وضعه صلى الله عليه وسلم فى ردائه الشريف ، ثـــم رفعه عند مكانه ليضعه فيه ، فكان حكيما سبق كل الحكماء ، وذلك كله قبل الاسلام

- العفـــة :

دأب شباب قريش على الخروج عن قوانين الأسرة ، فبعضهم لم يعف فرجه ، وبعض آخر لم يعف عن الشراب بطنه ، وبعض ثالث لم يعف عن الهجاء لسـانه ، الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان عفيفا فى كل شئ حتى كان العفة بذاتها ، بحيث لو تجسمت لن تجد مَنْ يمثلها الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من جماع تلك الصفات ، كان الرسول صلى الله عليه وسلم ، مهيأ لبعث ملة ابراهيم عليه السلام بين ظهرانى العرب جميعا ، وأهل الأرض قاطبة ، وكانت تلك الصفات بمثابة المؤهلات الأولى للرسالة ، حتى اذا أنزل عليه القرآن الكريم ، وراح يبلغـه للناس ، لم يكن فى حاجة ليعرِّف الناس بذاته أولا ثم يبدأ فى عرض رسالته ، وانما كانت صفاته الكريمة تسبقه ، فاذا قال فى قوم ما ، اننى محمد بن عبد الله القرشى فهم الجميع أنه الصـادق الأمين العفيف الحكيم ، فيهرعون اليه لعلهم يعرفـون ما جاء من أجله ، وكان ذلك هو السـلاح الوحيد الذى ظل يدافع به سـنوات طوال هى مدة مكثه صلى الله عليه وسلم بمكة المكرمة بعد البعثة ، وهى ثلاثة عشر عاما ، على الرأى القائل بالرجحان ، فهل انتشر الاسلام بالسيف والسنان ؟ لاشك أنك ستلوح معى بأنه انتشر بالحجة والبرهان ، وذلك ما سنفرد له صفحات فى الجزء الثانى ان شاء الله تعالى .

ب ـ حرية الاعتقاد مع تأمين المخالف

رجحت كفة الاضطهاد للمخالفين ، على كفة التسامح ـ عند دعاة الأديان قبل الاسلام ، وكان المخالف يساق لعقيدة الأقوى تحت تأثير الخوف أو خشية الضياع فى بيداء الرعب بين أغوال الصحارى ، أو ضمانا لحياة ولو مستذلة ـ أفضل من الانصهار فى مراجل النسيان ، أو بين طيات الأكفان .

ولم تكن دعوة السماء فى حقيقتها ، الا تأمينا للمخالف على حياته ورزقه ، وحسابه بعد ذلك على الله ، وعلى هذا جاءت دعوات رسل الله أجمعين ، وسجل القرآن الكريم مواقفهم من مخالفيهم ، وأن كل نبى كانت دعوته للمخالف "إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ" (١) "إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ" (٢) "قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا" (٣) ، وظل هذا دربهم يسيرون فيه ، حتى جاء خاتم الأنبياء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فأكده .

غير أنه على فترات من الرسل ، كان ينهض بعض مَنْ يظنون فى أنفسهم الاصلاح ، ويتوسمون فى ملكاتهم القدرة على قيادة أممهم ، فينشئون لهم قوانين يصوغونها تبعا لقدراتهم ، ويعملون على اكراه القوم اليها ، وحتى تنال بين القوم القبول وذيوع الشهرة ، راح بعضهم يدّعى نسبتها الى سبب سماوى (٤) ، أو لاصطفاء أبوى (٥) ، أو الهام روحانى (٦) ، أو تفضيل ملائكى ربانى (٧) .

---

(١) سورة سبأ الآية ٤٧ ، وتكرر ذلك فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة .
(٢) سورة هود الآية ٨٨ (٣) سورة مريم الآية ٤٧ .
(٤) كالتوراة الموجودة الآن باسم العهد القديم .
(٥) كدعوى اليهود والمسيحيين بنوتهم لله .
(٦) كما يدعى كتاب المسيحية وقسسها فى العهد الجديد .
(٧) كما تزعم بعض طوائف اليهودية ـ وبعض طوائف تدعى نسبتها الى الاسلام كالمحمدية وغيرها .

من هنا راحوا يلزمون الناس بها ، ومَنّ يخرج عليها لاينبغى له أن يحظى بالحياة ، فهذا يُحرَقُ أو يُمزّقُ (١) وذلك يُصْلَبُ ، وثالث تلقى عليه أحكام تشيب لها الولدان (٢) والفيصل أن يطرح ما يعتقده (ولو كان عين الصواب) ويُلْـزَمُ بما يملى عليه ، ولو كان التزاما شكليا ، مفرغ الفحوى وخاوى المضمون ، واشتهرت هذه ، وتلك بين أجناس الأرض قاطبة ، فلما جاء نبى الهدى صلى الله عليه وسلم بيّن للناس أجمعين أن تأمين المخالف فى العقيدة ، ووصوله مأمنه أمر دينى ، بل جزء من تعاليم الاسلام السمح الحنيف ، وجاءت آيات القرآن الكريم وراح الرسول المصطفى يطبقها ، فجعلت العقلاء ينظرون الى الاسلام نظرة المتلهف للأمـان فى ظل قيادة التقى ، وقد قتلته قيادة الارهاب والطغيان ، من هنا اندفعوا الـى الاسلام ثحدوهم نصوصه الكريمة ، وتحفهم تعاليمه ، ويرتلون مع المؤمنين آياتـه والتى منها تلك الآية التى تؤيد ما ذهبنا اليه ، وهى قوله تعالى " وَإِنْ أَحَـدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَـوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ "

والآية تمنح المشرك عهد الأمان ، وتزيح عنه كابوس القلق والخوف ، وتوفـر له جانب الطمأنينة ، مادام قد جاء الى المسلمين مستجيرا ، يطلب منهم حمايتـه وفرض حصانتهم عليه ، وبسط جناحهم على نفسه وعرضه وماله ، ورتبت الآية بعـد ذلك أمورا هى :

١ — حـق حمايتـه .

٢ — اسماعه كلام اللـه .

٣ — إبلاغه مأمنه متى طلب ذلك ، حتى يصل الى قومه أو من تطمئن نفسـه اليهم بناء على رغبته ، مع أنه فى كل الحالات حامل وصف المشرك بالله ولقبه .

---

(١) كما فعلت الكنيسة بكوبر نيقوس ، وجاليليو وغيرهما .
(٢) كما وقع لجوته وغيره من أحرار ألمانيا .

قال تعالى :

" وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ ، فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ " (١)

قال العلامة الألوسى رحمه الله فى معنى الآية :

" وَإِنْ أَحَدٌ " شروع فى بيان حكم المتصدين لمبادى التوبة ، من سماع كلام الله تعالى ، والوقوف على شعائر الدين ، أثر بيان حكم التائبين عن الكفر والمصريين عليه ... " مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ " أى استأمنك وطلب مجاورتك بعد انقضاء الأجل المضروب ، " فأجره " أى فأمنه - حتى يسمع كلام الله ويتدبره ، ويطلع على حقيقة ما تدعو اليه ... والمراد بكلام الله تعالى الآيات المشتملة على ما يدل على التوحيد ، ونفى الشبه والشبيه .... " ثُمَّ أَبْلِغْهُ " بعد سماعه كلام الله ان لم يؤمن ، مأمنه أى مسكنه الذى يأمن فيه ، أو موضع أمنه وهو ديار قومه ... ذلك أى الأمن أو الأمر ، بأنهم أى بسبب أنهم قوم لايعلمون ، ما الاسلام وما حقيقته وما يدعوا اليه ، أو قوم جهلة فلابد من اعطاء الأمان حتى يفهموا ذلك ، ولا يبقى لهم معذرة أصلا ، والآية كما قال الحسن محكمة ، وكونها محكمة مما مال اليه الألوسى فقال " وما قاله الحسن أحسن " (٢)

واعتبرها قوم منسوخة ، ونسب الى الضحاك وغيره النسخ ، وأن نسخها تم بقوله تعالى " وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً " وقوله " فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ " ، والأولى ما مال اليه الحسن ورجحه الألوسى ، وكونها محكمة أفضل وأبلغ فى الرد على مَنْ زعم ان الاسلام انتشر بحد السيف لا بقوة المنطق .

---

(١) سورة التوبة الآية ٦

(٢) روح المعانى جـ١٠ ص٥٢ - ٥٤ بتصرف ط دار احياء التراث العربى ببيروت .

ولا يخفى على أى عاقل ، أن ما يردده أعداء الاسلام ، ويذيعونه بكل لسان ، ما هو الا وهم وقعوا فيه وخيال مريض عبروا عنه ، وتعصب بغيض صدروا منه ، كما لا يخفى على منصف أن حرية الاعتقاد فى الاسلام ، نالت من العناية القدر الذى كفل لها البقاء من نصوص قرآنية ، أو أحاديث نبوية ، أو تطبيقات عملية ، بحيث اذا طَلَبْتَ دليلا على عكس ذلك أعياك ومَنْ يَدَّعِى .

واذا طلبت دليلا على ما نقول ، فى مجال التطبيق ، بعد أن عرفت جانب النصوص ، التى هى بمثابة القاعدة القانونية ، (التشبيه مع الفارق) — فاذهب الى أهل الذمة فى صدر الاسلام ، لتعرف موقف الاسلام منهم ، ويكفى أن تعلم ، أن التاريخ لم يحفل بواقعة واحدة ، تَمَّ فيها ادخال عنصر الضغط أو الاكراه ، على أحاد أهل الذمة لعلهم فى الاسلام يدخلون ، وان كنت تجده قد حفل بالكثير من ذلك بالنسبة لأهل الديانات التى واكبت الاسلام أو جاءت بعده ، أو قبله ولم يكن لها سند من السماء ، حتى عرف العالم كله أن الاسلام يرفض الاضطهاد ، وهو علامة الأديان الأخرى كلها (١) .

ولعلك تسمع كيف كان المسيحيون يجبرون المسلمين فى الفردوس الاسلامى المفقود (الأندلس) على ترك الاسلام والدخول فى المسيحية ، ورغم أن

---

(١) قارن بين دخول الاسلام الحبشة واليمن ومصر والأندلس ، وبين دخول اليهودية والمسيحية الاولى فلسطين وصور الارهاب والطرد والحرمان حتى تحول الشعب الفلسطينى المسلم أغلبه الى لاجىء فى الأرض ، أو يهودى المظهر ، ودخول المسيحية الاندلس (الفردوس الاسلامى المفقود) لترى كيف بذل المسيحيون من مجهودات عنيفة — لارهاب المسلمين هناك ، حتى يتركوا ديارهم أو دينهم الذى تغلغل فى ضمائرهم واختلط بجريان الدم فى عروقهم وكيف تحمل المسلمون هناك صنوف البطش والارهاب .
وكذلك الشيوعية ودخولها الى البلاد الاسلامية وكيف بذل الماركسيون وما يزالون لتحويل الشعب المسلم فى بخارى وسمرقند وطشقند وغيرها من البلدان الاسلامية التى وقعت مؤقتا تحت استعمارهم وما يزالون يفعلون بكل من أفغانستان وباكستان والعراق وايران .

محاولاتهم المتكررة المتواصلة المستميتة لم يقدر لها النجاح بالقدر الكافي ، الا أنها ما زالت حتى اليوم ، وان اختلفت وسائلها في الحاضر عنه في الماضي ، ومثلها الشيوعية ، التي سحقت بجحافلها البشرية أرض الاسلام في آسيا ، من شرقها الى غربها ، حتى صرنا نجد بلاد أئمة الحديث النبوي كالبخاري وأئمة الفكر كالغزالي ، وأئمة الفلسفة كابن سيناء والفارابي تحت سطوتهم وفي مرمى أيديهم ، ويعملون جاهدين على ايجاد جيل شيوعي لا يعرف شيئا عن الاسلام بحجة واهية لاترقى الى الظن ، فأي حرية عقدية تلك التي تحجرعلى مَنْ لم يعتنقها بل وتحرمه من حقه في الحياة ، كما تخول للقائمين عليها حرمانه من الحياة جملة ، فأين هذه من حرية الاعتقاد في الاسلام ولا شك أن مَنْ يقارن فسيجد ما يلي :

١ — ان الحرية العقدية في الاسلام ، كانت مصدر جذب لغير المسلمين حتى دخلوا فيه اخوانا متحابين ، بينما غيره من الديانات التي كانت الحرية العقدية فيها اسما يخالف تطبيقها أصل الدعوة اليها ، تجدها قد أكرهت الناس على الاعتقاد بها فهربوا منها ، وقد أدخلتهم من بابها فهربوا في أول فرصة من الباب الثاني .

٢ — ان الحرية العقدية في الاسلام ، كفلت لغير المسلمين الحقوق ، وحددت ما عليهم نحو دولة الاسلام من واجبات ، كانت في حدود طاقتهم ، وتتمكن منها قدراتهم ، فلما أتيحت لهم الفرصة أنضموا للاسلام مسلمين ، وحافظوا عليه وتمسكوا بنصوصه ، وبلغوها للعالمين ، كمسلمة أهل الكتاب ، بينما نجد الديانات الأخرى أهدرت لغير معتنقيها كل حقوقهم ، واجهدت كل امكانياتهم ، وحكمت عليهم بالعدم ، رغم رغبتهم في الحياة ، كما فعلت الكنيسة في القرون الوسطى ، ومحاكم التفتيش ، والمؤسسات الشيوعية والعلمانية في العصر الحديث وما مداهمة الروس لبلاد الأفغانستان

الاسلامية الصغيرة ، الا لون من ألوان الاستبداد والحرمان بل والاضطهاد الذى يرفضه الاسلام وتقره الاديان الأخرى بل وتطبقه كسلوك عملى .

٣ — إن الحرية العقدية فى الاسلام حفظت لأبناء الاسلام حوافز البحث فى العلوم الدينية والدنيوية ، وفتحت أمامهم الأبواب بلا حدود لمزيد من البحث ، والعناية به حتى ولو كان ذلك فى بلاد المخالفين أو تحت سلطانهم المادى أو العلمى ، فجعلت أبناء الاسلام يقفزون الى الأمام فى ثقة واقتدار ، بينما نجد الديانات الأخرى قد فرضت على أبناء الوطن الواحد الاختلاف والتنابز من خلال تصنيفات ومعتقدات لا أساس لها من الصحة ، ولا يقوم عليها بنيان مجتمع ما ، كما فعلت الكنيسة ذلك فى البروتستانت والأرثوذكس والكاثوليك وبالأخص فى مسألة شكل الاعتقاد ، ويفعله الشيوعيون اليوم فى كل مكان تصل اليه اقدامهم أو أيديهم فهذا تابع للبرجوازية الطبقية التى يجب أن تعدم (من وجهة نظرهم) وذاك تابع لطبقة البروليتاريا التى عانت من الحرمان طويلا ، ويحق لها أن تعيش حاضرها لتعوض ما فات من ماضيها ، فهذا يحاول القضاء على ذاك والعكس كذلك ، حفاظا على مبدأ البقاء وحب الحياة . فقل أنصارهم وكثر خصومهم رغم محاولاتهم بذل المزيد لتثبيت القدم غير الواثقة ، وتأمين القلوب الواجفة ، ولن يخفى شىء من ذلك عن المأساة التى يحايثونها قتيلا ، بينما يهرع الجميع للاسلام لأن فيه الخلاص من كل هذه الأشكال المأساوية ، ومثيلاتها . فأى الفريقين أحق بالاتباع ، لاشك أنك سترفع يديك ملوحا انه الاسلام ، دين الحق والعدل والخير والسلام دين رب العالمين ، بلغ به اكرم خلق الله سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وسار على دربه من بعده أصحابه وأتباعه ، وأهل السُّنَّةِ والجماعة الى يومنا هذا والى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

الباب الثالث

المثالية فى الإســلام

الفصل الأول

(الشـــالبـــة العقـــديـــة)

حفلت المثالية بالاسلام كما حفل بعقيدته وشريعته ، واهتم بشئون أتباعه فكان ذلك مصدر جذب لرواد المتابعين لدعوته ، فانطلقوا اليه ، يتأملون نصوصه ، ويدرسون مبادئه وقواعده ، حتى اذا شملهم نوره ، وغمرهم فيضه انطلقوا به مبلغين ، وللدفاع عن عقيدته مستشهدين ، يقودهم الى ذلك ، فَهْمٌ سليم ، لمثالية حكيمة ، راشدة تأخذ بهم الى حيث يرضى رب العالمين أَلَا وهى مثالية الاسلام .

ولقد كانت مثالية الاسلام/كما كانت وسيطته/مصدر أمن وأمل ، وراحة من هموم الحياة ، وطمعا فيما عند الله ، فتحقق بينهم العدل الاجتماعى ، ونضجت فيهم الاخوة الصادقة ، ونمت بين جوانحهم معايير الايثار ، وقد انطفأت جذوة الأنانية والأثرة حتى لم يكن بينهم مَنْ ينام ليلة ، الا وشاغله الأول ، طاعة الله فى اخوانه المسلمين ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فى تبليغ أمور الدين ، يتساوى فى ذلك الراعى والرعية .

أجل نضجت تلك الثمار الذكية ، فأينعت مَنْ حملوا لواء الدعوة الاسلامية لا يرجون من وراء ذلك الا أن يفوزوا بالقبول من الله ، وأن يظفروا بما عنده من نظر اليهم ، وتكليم لهم ، ونعيم فى الآخرة مقيم ، فكانوا بحق حملة مشاعل حضارية نمت فى بيئة اسلامية ، وارتضعت تعاليم نبوية والهية ، واليك بعض جوانب تلك المثالية الاسلامية ، ولعلك تلوح معى فى أنها مثالية جذابة حَرِيَّةٌ بأن يتبعها العاقلون .

١ - المثاليـة فى العقيـدة :

بدأ الاسلام مثاليا من أول وهلة بعث فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ليبلغ الناس دعوة الله اليهم بالاسلام . مثالية تتلمس طريقها نحو ألباب القوم وعقولهم . فبدأ بزوجه السيدة خديجة رضى الله عنها . وجاء من بعدها لصديقه الصديق . ثم حيدره بطل الهجرة الشجاع على بن أبى طالب كرم الله وجهه . وكان مايزال صبيا . فلم يفرق الاسلام فى المنزلة بين المرأة والرجل والصبى . بل كل منهم حاز لنفسه فضل ذلك السبق .

أجل . انها مثالية لم تفرق بين الرجل وأهله . كما لم تلزم أحدا بما ليس فى طاقته . وبهذه المثالية فى العقيدة . التى تبدأ من الاغتسال ثم النطق بالشهادتين . ومن الهجرة من معتقد الكفر الى عقيدة الاسلام بنقائها والصفاء ابتهج القوم . وفهموا تعاليم الاسلام . فلم تقف أمامهم الحواجز ولم تحجبهم السدود .

مثالية ملزمة لصاحبها بما تمليه عليه عقيدته من تطبيق فى السلوك والتزام بالأحكام وانقياد تام لها . يدفعه لهذا كله أمل فياض فى سعادة الدنيا والآخرة . فيها المساواة فى الحقوق والواجبات . أمام الله والناس حيث ينطوون جميعا تحت قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ . إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " (١)

مثالية عمت الثناء والشكر فى قوله تعالى " اَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " بمعنى أنه رب الخلق جميعا . فتوجهه اليهم هو توجه الخالق العليم بما له من عناية ورعاية . وتوجههم اليه هو توجه معبود محتاج للخالق الكريم . اذن هو توجه مثالى فى كل جوانبه .

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣

ثم ما هي العقيدة من حيث ذاتها ؟ إن هي إلا ايمان متكامل ، معقودة في القلب أسسه ، منظوم في العقل بنيانه ، مركوزة في الفطرة قواعده ، منصب على اعتقاد وجود الله تعالى ، ووحدانيته ، وكمالاته بما يفيد تحقق الكمال والجلال المطلقين له جل وعلا ، اعتقاد بوجوب أوجه الكمال له وانعدام كل وجوه النقص أو القصور عنه ، مع نفي المماثلة ودفع المعاونة ، فليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وتسليم تام بأن ما شرعه الله يجب تطبيقه ، والقيام عليه والعناية به . وما هي العقيدة من حيث القائمين تحتها ؟ إن هي الا دوحة فينانة وارفة الظلال ، وسط صحراء مترامية الأطراف ، لاتمنع من يرتادها طفلا كان ، أو شيخا ، أمرأة أو وليدا صاحب مال أو متربة ، صاحب جاه أو مستوجب صدقة يتساوى تحت ظلالها العبد وسيده ، والمحكوم وحاكمه ، يتكاتف في ربوعها القوى والضعيف ، الظاعن والمقيم ، يرتون من نبعها والغدير مرتلين قول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه الامام على رضى الله عنه " المؤمنون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم " (١)

ويتعانقون في مبادئها ناظرين لقوله صلى الله عليه وسلم " الناس سواسية كأسنان المشط لافضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى والعمل الصالح " (٢) ، وتحدوهم عدالة الهية لايستقيم في رحابها الا الحق في قوله تعالى في الحديث القدسى " الجنة لمن اتقانى ولو كان عبدا حبشيا ، والنار لمن عصانى ولو كان حنيفا قرشيا .

---

(١) مسند الامام / احمد جـ٣ ص ٢٠/٤٩ — وزاد الديلمى " وانما يتفاضلون بالعافية ، فلا تصحبن أحدا لايرى لك من الفضل مثل ما ترى له " . والترمزى في كتاب الفتن .

(٢) كشف الخفاء جـ ٢ ص ٤٣٣

٢ - المثالية فى الاعتقاد العملى :

من المعلوم أن العبادة هى الجانب التطبيقى فى الدين السماوى ، أو الجانب العملى على رأى من يقول به ، وهى تبدأ بأخف التكاليف وأيسرها ، وتنتهى بما يُحتاج فيه الى نصاب يبلغه وما توجبه الاستطاعة عند وجودها ، وبين البداية والنهاية ، تكاليف مثالية ، تعود بالنفع والخير على فاعلها فى الدنيا بدنيا ، ونفسيا ، وصحيا ، وماليا ، وفى الآخرة بالنظر لوجهه الكريم سبحانه وتعالى ، والتمتع به ورضوان من الله أكبر ، ذلك هو الفوز العظيم .

واليك بعضا منها :

أ - العمل القلبى فى العقيدة :

وهو لا ينطوى على مجرد النطق بالشهادتين فقط ، ولو بدون تحريك لسان وشفاه " شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، بل يكفى فيه عمل القلب واعتقاده ، وذلك لا يختص به واحد دون آخر ، بل كل مسلم عليه أن ينطق بهما ، ولو عجز عن النطق ، وجب عليه فعل ما يفيد اقتناعه بالاسلام وجريانهما عليه بعد الانتفاء فيه .

وهما لا يحتاجان الى طقوس أو مراسيم ، ولا يحتاجان الى قسس أو قرابين ، بل يكفى فيهما مجرد ما يفيد اعتقادهما ، وهذا ما أيسره من تكليف ، وما أجمله من سلوك مثالى ، لا يجدى معه العنف ولا ينتزعه الارهاب ، ولعل هذا ما يشير إليه الحديث القدسى الشريف " إنى أنا الله لا اله الا أنا ، من أقرّ لى بالتوحيد دخل حصنى ، ومن دخل حصنى أمن عذابى " وقوله " لا اله الا الله حصنى ، مَنْ قالها دخل حصنى ، ومَنْ دخل حصنى أمن عذابى " (١) .

---

(١) أخرجه الشيرازى فى الألقاب عن على رضى الله عنه ، فيض القدير جـ٤ صـ٤٨٩ والاتحافات السنية صـ٣٣ .

وقوله صلى الله عليه وسلم :

" من قال لا اله الا الله ، دخل الجنة " فعن معاذ رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ، من كان آخر كلامه لا اله الا الله ، دخل الجنة " رواه أبو داود الحاكم ، وقال صحيح الاسناد (١).

" وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقنوا موتاكم لا اله الا الله ، رواه مسلم " (٢) ومعلوم أن القول عمل اللسان ، وعند العجز يقوم مقامه ما يؤدى الى نفس الغرض المراد ، وهذا سلوك حمل فى طياته الأمل والأمن ، ويغرب عن بعض الأفهام ، مقدار العقيدة القلبية فى الاسلام ، فالعمل القلبى فيها له دور جلى ، حيث يعبئ الداخل فيشعر المرء فى قرارة نفسه ، أن قوة أعلى منه ، ومن غيره تحميه من كل زيف وتصرف عنه كل ضلال — يمكن أن يدفعه اليه واحد من المخلوقين — وأن مصدر هذه القوة الايمانية ، هو الذى تعبد المخلوقين به ، ودانوا جميعا له .

وقد أسرفت حضارات عديدة ، حين أكرهت أقواما على الدخول الى مناطق نفوذها ، أما لماذا ؟ فلأنها لم تتعامل معهم بالحكمة ، ولم تلق تعاليمها من هؤلاء الأتباع أدنى قبول ، بجانب أن أغلب تلك الحضارات — تجاوزاء مصدرها العقل الانسانى وحده ، ونوازع الانسان ، وتحكماته بعيدا عن ميدان الهداية الربانيــــة .

من هنا فان أغلب تلك الحضارات انتهت مهمتها أثناء وجودها ، وفشلت فى القيام بأبسط مهامها التى كان من المقرر أن تقوم بها ، حتى كانت النهاية

(١) رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين باب تلقين المحضر لا اله الا الله ص ٣٣٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٣٧ .

الأليمة لهذه وتلك ، وانصهرت تلك الحضارات ، وذاب القائمون عليها ، بـل ان التاريخ لم يعد يذكرهم الا عند الدعاء بانزال اللعنات .

أما الاسلام فقد خاطب العقل والعاطفة ، وأيقظ المشاعر ونبه الوجدان وجعل الفضيلة فى فعل الخير العام والخاص ، ونبه الى أن مصدر ذلك كله وغايته ، هو الايمان بالله تعالى ربا ، وتصديق بنبى الاسلام سيدنا محمد صلى الله عليه نبيا ورسولا ، بل ولهم الخاتم ، وبالاسلام دينا ، ودعاء الى الله على بصيرة بالقرآن الكريم ، وضياء السنة النبوية المطهرة .

وثمة شىء هام ، هو أن الاسلام ، جعل العقيدة من عمل القلب ، بحيث لا يتمكن واحد من انتزاعها ، فالمؤمن يسبح بها ويتيه ، فاذا تمكنت من قلبه جعلته يستولى على الحواس بسلطانه ، فلا تفعل الا ما يأمرها به ، ولا تجاوز بخواصها ما أمر الشرع بالوقوف عنده ، ولا سلطان على صاحبها ، الا محبته لخالقه ومراقبته له وتعلقه بأمل أكيد ، غايته أن يرضى عليه رب العالمين .

ب - العمل القلبى فى التكاليف :

أثبتت الآيات القرآنية مكانة العمل القلبى فى التكاليف من ناحية المسؤلية والجزاء " فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ " (١) ولا شك أن العمل القلبى لا يختص فقط بالفعل ، بل ان الكف عن الفعل ، هو أيضا فعل بطريق السلب ، ويُسَمَّى العمل السلبى. وهذا ما شمله الحديث الشريف فى قوله صلى الله عليه وسلم " اذا هم العبد بحسنة فعملها كتبت له حسنة الى سبعمائة ضعف ، واذا هم بها فلم يعملها ، كتبت له حسنة ، واذا هم بسيئة

(١) سورة الزلزلة الآيتان ٧ ، ٨

فعملها كتبت عليه سيئة إلَّا أن يتوب ، واذا هَمَّ بها ولم يعملها كتبت له حسنة" (١)
ولا شك أن الهم فعل قلبى ، ايجابا أو سلبا ، فعلا وتركا .

وسواء كان ذلك من قبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أو كان من قبيل مباشرتهما ، ولعل هذا ما يفهم من قوله صلى الله عليه وسلم " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان " (٢)

ثم انه من المقرر فى اصطلاح علماء الشريعة ، أن النية محلها القلب وكذلك ما يجرى فى أعراف الناس من أن نية المرء الصالحة ، خير من عمله السىء ، فقالوا نية المرء خير من عمله ولما كان القلب هو محل الاعتراف ومكان الأمان ، كان حرص الاسلام على واجباته كبيرا ، وبيان منزلته كثيرا ، حتى عرَّفوا الايمان بأنه " ما وقر فى القلب ، وصدقه العمل " .

وقد حُمِّل القلب بأمانة كبرى ، هى حفظ التكاليف العقدية والشرعية ، وعليه مدار صلاحها فيما رواه النعمان بن بشر ، ولما كان صلاح القلب به صلاح البدن ، قال عليه السلام " الا ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب " (٣) وكان دعاؤه الدائم صلى الله عليه وسلم ما روى عن أم سلمة رضى الله عنها مرفوعا " اللهم مقلب القلوب ، ثبت قلبى على دينك " (٤) .

---

(١) وفى معناه " ان الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بيّن ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وان هم فعملها . . . . . الحديث — متفق عليه اخرجه البخارى ومسلم — جامع العلوم والحكم ص ٣٠٥

(٢) اخرجه مسلم فى صحيحه جـ٢ ص ٢١ واحمد فى سنده جـ٣ ص ٢٠—٤٩ ، والترمزى فى كتاب الفتن .

(٣) اخرجه الامام أحمد فى مسنده جـ ٤ ص ٢٧٠

(٤) اخرجه الامام احمد فى سنده جـ ٦ ص ٣٠٢

ولما كان القلب صاحب سلطان كبير على البدن ، وهو المسئول عن تدبيره وهو المخاطب مع العقل بالتكاليف ، جعله الله بعيدا عن كل ضغوط ، يتساوى في ذلك كل الخلائق المكلفين ، وأنه وحده جل وعلا مقلبه ومثبته ، تيمنا بقوله صلى الله عليه وسلم " إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ، وقوله عليه السلام رواه عبد الله بن عمرو مرفوعا " ان قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن " (١) .

ولا يخفى على ذي بال ، أن الاسلام قد حرص على استبقاء منطقة القلب للمرء ذاته ، يشغلها بما يثاب به أو يعاقب عليه ، إن في حالة الاكراه أو الاقبال حتى اذا ما تلونا قوله تعالى : " مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ، وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ " (٢) أدركنا أن عمل القلب أكثر من عمل الجوارح وأدق ، وأن الحواس اذا تصرفت على هدى من أوامر القلب ، كانت صورة له ، أما اذا خالفها فلاشك أنه المسئول وعلى ما يبدر منه يحاسب .

والمثالية في العبادة من هذا النوع ، تتلخص في سيطرة القلب على تصرفاته والجوارح الخيرة على الهواجس الشريرة ، والملكات النيرة على العواطف المدمرة ولعل أثر العمل القلبي يكون بارزا اذا اكتنفته انبعاثات علوية ، تمخر معه عباب المحيط ، وتغالب به اضطراب العواصف ، وتظفر معه بالنجاة من رعونة الموجات العاتيات ، ولاشك أن الانبعاثات العلوية ، هي وحي الله في قرآنه الكريم ، وحديثه القدسي ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) مسند الامام احمد جـ٢ صـ ١٦٨

(٢) سورة النحل الآية ١٠٦

ومما لا شك فيه أن جانب المثالية كما هو متوفر في العبادة ، والاعتقاد بالنسبة للقلب ، فهو كذلك متوفر في المعتقدين من ناحية اختصاصه بهم وتفوقهم فيه على غيرهم ، وتألق كل واحد منهم بما له من مكانة عند الله ، وما يبلغ من شأو في محبته تعالى أو محادثته ، ولانلمح ديانة بعد أفضل من مثالية الاسلام ، وبالتالي فقد كانت سببا قويا لانتشاره .

الفصل الثانى

(المثالية فى التكاليف العملية والسلوكية)

المثاليـة فى العمل بصفة عامة :

اشترطت جهات متعددة شروطا عديدة للعمل ، منها ما فيه غبن للعامل ، وضياع لمجهوده ، وحرمانه من ثمرة عنائه ، أو فقدان للعمل ذاته ، واعتباره وظيفة الصعاليك ومهنة الرقيق ، ومهمة الجارية ، وواجب المحرومين ، ودعاء اللاهثين ، رغم أن أنبياء الله تعالى جميعا جاءوا بالعمل ودعوا اليه فضلا عن ممارستهم له ، حتى جاء الأثر "ما من نبى الا ورعى الغنم " (١) الا أن هذا العمل كان يختلف من نبى لآخر من حيث نوعه فقط ، وتوارث الصالحون من أتباعهم العمل وحُبِّب اليهم وشغفوا به بعد عبادة الله ، حتى صار العمل عبادة .

ودارت الأيام فاذا نحن بقوم يرفضون العمل ، ويحقرون العاملين ويغبنونهم الحق فى عائده ، ان كان أجرا ، أو ربحا ، وظهرت نظريات الرأسمالية ، والاشتراكية ، ونادت بمسميات كالبرجوازية ، والارستقراطية ، والبروليتاريا ، واختلفوا فيما بينهم ولم يجمعهم مدلول ، كما لم يجمع بينهم هدف ، فعلى حين ينادى الشيوعيون بمثاليتهم ، "يجب أن يموت تحت العمل شباب اليوم ليحى جيل الغد "نجد الرأسمالية التى تؤمن بأن الغاية تبرر الوسيلة ، وأن الانسان له أن يعيش حاضره فقط ولو على اكتاف الآخرين ، وكلتاهما ضلال مبين .

وكان من جراء اعتناق الاشتراكية ، أن صار الانسان والآلة صنوين ، بل تفوقه الآلة فى الاحترام والاستمرار وقدرتها المستمرة على العطاء ، من هنا كان حكمهم الشيوعى ، أن مَنْ لا يعمل يجب أن لا يعيش ، يتساوى فى ذلك الأطفال غير الرضع والكهول والمرضى والنساء ، وفى هذا ما فيه من دمار أسرى ، وتشقق اجتماعى وانحطاط دينى ، تبرأ منه ساحة عدالة السماء .

---

(١) حديث شريف .

وفى الرأسمالية عاش المرء لايكابد الا رغبته فى السيطرة ، وقدرته على التملك ، وحبه لجمع المال ، ولو بدماء بريئة ، أو أعراض ملوثة ، لايعنيه الا أن يكون صاحب رصيد أكبر من العملات الاجنبية والمحلية ، وأن يتملك أكبر قدر من المصانع ، وأن يسيطر على أضخم عدد من الخلائق ، بغية المال والرأسمالية مما أوجد لكل ضحاياه التى تفوق الحصر ، ويعانى من آثارها المدمرة ، أغلب شعوب الأرض التى تطوف فى فلكها .

ومثل هذا يقال فى اليهودية التى يتفانى أهلها فى جمع المال ، وحب الحياة مهما كان لونها ، وبأى ثمن كانت ، والمسيحية التى ينادى أصحابها بالمحبة ، ويطبقون القتل والدمار وينشدون الخراب ، وليست الحروب العالمية والصليبية ببعيدة ، ولبنان والفلبين ، اذن فما هى مثالية الاسلام فى العمل ؟ والجواب .

قدس الاسلام العمل ورفع قدره ، وجعل جزاء المرء بقدر مايعمل ، لايضار فى شئ منه ، شاملا شئون الدنيا ومطلب الآخرة ، فقال صلى الله عليه وسلم " أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، وأعمل لآخرتك كأنك تموت غدا " وفى الحديث دلالة واضحة ، على أن تحقيق الأمن لايكون الا بالعمل الدنيوى ، وثماره الحياة الكريمة ماديا ، والأخروى وثماره الحياة الكريمة صحيا واجتماعيا ، لصلاحه دنيا ، وبالتالى يتحقق للبشرية جمعاء ، أمن يعمها ، وأمان يجمع شملها .

ولم يفرق الاسلام بمثاليته فى العمل بين الذكر والأنثى ، فقال تعالى " مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " (١) .

---

(١) سورة النحل الآية ٩٧

ولما كان العمل عبادة مثالية فى الاسلام ، جعل الله دعاء العامل المسلم مستجابا ، قال تعالى " فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ " (١)

ثم ان العمل فى حد ذاته ، تنمية للأبدان ، وشحذ للأذهان ، وتدريب للأبصار ، وتقليب لأولى الأنظار ، وبه يتملك المرء زمام نفسه ، ويقود بحق عما هى سفنه ، ويخوض عن يقين المعترك ولججه ، ولأنه فى نهاية الأمر ، يجد ثمرة ماجنت يداه ، فى الدنيا بتوفير الأمن والأمان ، وفى الآخرة بالنعيم والرضوان ، ولعل هذا ما أشار اليه الرحمن فى قوله جل وعلا " فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ " (٢) من هنا كانت مثالية العمل فى الاسلام حتى صار بالامكان القول ، بأن الاسلام الذى جاء يدعو به نبى الله محمد صلى الله عليه وسلم ، جاء مرة أخيرة " ليعيد لتعاليم الله صفاءها ، وليخلص الدين مما علق به من رواسب ، وما لحق به من تحريف ، فهو اصلاح عام ، ودعوة الى تآلف الشعوب ، وتقارب الأمم ، وتوحيد العالم ، ودعوة الناس جميعا الى منهاج واحد فى العقيدة والسلوك ، ليعيشوا فى سلام ومحبة ، وتكافل وتعاون وتآزر ، كى يصل المجتمع الانسانى الى المستوى الراقى الرفيع " (٣)

بيد أن مثالية العمل فى الاسلام ، واحترام عقيدة المسلم للعمل ، لم يقرا الا نوعا واحدا من العمل ، وهو العمل الحلال ، الذى يتعلق بأمر المعاش ،

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٥
(٢) سورة الزلزلة الآيتان ٧ ، ٨
(٣) الشيخ / سيد سابق - دعوة الاسلام ص ١٤ ط دار الكتاب العربى ببيروت

كالسعى الى لقمة العيش ، وما يحفظ على المرء حياته ودينه وعفافه ، كالزواج والمعاملات ، ولعل هذا ما نوه اليه الحديث فى صدره " أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا " ، شريطة أن يكون العمل حلالا فى حلال ، من ناحية الشرع المسلم المعتبر .

وكذلك الذى يتعلق بأمر المعاد ، وهو العمل المقرب الى محبة الله تعالى ويتفضل الله تعالى على أصحابه بالحسنى وزيادة " لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " (١)
واقامة أركان الاسلام كاملة غير منقوصة ، وتحقق الايمان بأجزائه من القلوب ، ونفاذ الاحسان بمدلوله الى العقول ، كل ذلك متعلق بأمر المعاد .

وما من شك فى أن تقدير الاسلام لتلك المواقف ، ووضعه فى الاعتبار عند ميزان الالتزام يؤكد بحسم ، أن القضية فى حساب المقابلات ، محسومة لصالح دين الاسلام ، وأنه ما من كمال فى عمل الا وكان الاسلام موحيه ، وما من نقص فى عمل الا كان الاسلام مزدريه ، ولعل هذا ما جعل أكثر باحثى الغرب ينطقون - من خلال قضاياهم الفكرية - بأن الاسلام أفضل الأديان ، وأن على الجميع المسارعة لاعتناقه ، ليظفروا فى الدنيا بالسعادة ، وفى الآخرة بالنعيم المقيم .

---

(١) سورة يونس الآية ٢٦

المثالية فى العمل دون النظر الى نوعه :

حقا برع الاسلام فى تصوير المثالية فى العمل ، كما برع فى تطبيقها ، فلم يحقّر من العمل الا ما حقره الله تعالى باعتباره وحده العالم بالأمراض والعلل فحرم الله العمل فى الخمرة وأمثالها ، لما فيها من مضرة ناجزة ولاحقة فقال تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " (١)

وامتدح الاسلام العمل ولو كان بدنيا ، مهما كان صغيرا فى شأنه ،وقصة ذبح الشاة التى كان نصيب الرسول صلى الله عليه وسلم فيها جمع الحطب أبلغ دليل على المثالية ، فهو صلى الله عليه وسلم ، يرى أصحابه وقد اختار كل منهم ما يناسب طبيعته فى العمل ، فهذا لها ذابح ، وذاك سالخ ، وثالث مقطع ورابع طاه ، وتبقى مهمة شاقة ، وهى جمع الحطب الذى ستطهى به الشاه ، وهو عمل قليل فى شكله لكنه ضخم فى تحقيقه .

بيد أن الناظر الى هذا الأمر ، يدرك أن المثالية هنا بارزة للعيان ، فرغم أنه النبى ، وأنهم جميعا حاولوا أن يكفوه مؤنة جمع الحطب ، الا أنه صلى الله عليه وسلم ، يطبق المثالية فى العمل معهم ، فينطلق فى بيداء واسعة يجمع من أرجائها اليابس من الشجر الذى يندر وجوده ، بل قلّ أن يجده الا بمشقة ظاهرة ، وعناء شديد ، ومع هذا تحمل رسول الله المهمة ، وجمع الحطب فطهيت الشاة وأكل القوم المسافرون " وقد بذل كل منهم عملا ، والقصة فى كتب الحديث مشهورة .

---

(١) سورة المائدة الآيــة ٩٠

ويلتقى الرسول صلى الله عليه وسلم ، بأحد أصحابه هو حذيفة بن اليمان وقد كلت يداه من العمل ، ويبلغ به الحرج أن يصافح رسول الله خشية أن تخدش خشونة يده ، ملمس يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعرف الرسول شأن الصحابى ، فيهم اليه ويصافحه ويبلغه بأنها " يد يحبها الله ورسوله" ، أرأيت المثالية العملية فى الاسلام ؟

المثالية فى العمل بالنظر الى نوعه :

وهى مثالية خاصة بطائفة المتفقهين فى الدين ، ونفرتهم الى طلب الفقه الدينى ، ومطاولتهم الوقت فى طلبه وتحصيله بل والعمل البدنى لتحقيقه وتدوينه حتى يكونوا فقهاء علماء ، ورثة فى تبليغ شرع الله الأنبياء ، كما جاء فى الحديث الشريف " ان العلماء ورثة الأنبياء " (١) وقد أوجب الله على المؤمنين به العلم وتحصيله وجعله الفقهاء من فروض الكفاية ، محتجين بقوله تعالى " وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ " (٢) .

والحق عندى ، أنه من فروض الكفاية على المجموع ، ومن فروض العين على من يقومون به ويقدرون عليه خاصة اذا تعلق به الفهم فى أمور الدين ، من حلال وحرام وغيرهما ، اوتعلق به ضرورى من ضروريات الحياة الدنيا أو الآخرة ، فالعلماء لا يكونون كذلك ، الا بطلب العلم ومدارسته وتحصيله ، فهم أعلم الناس بعد النبوة بالله ، وأعرفهم به ، وأشدهم خشية له ، بل إنهم خلفاء الأنبياء فى تبليغ الكافة ما شرع الله تعالى لعباده ، ولذا أختصهم الله تعالى بالذكر فقال " إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ " (٣) .

(١) اخرجه الدارمى فى المقدمة باب رقم ٣٢ والترمذى فى كتاب العلم باب رقم ١٩ وابن ماجة فى المقدمه .

(٢) سورة التوبة الآية ١٢٢ (٣) سورة فاطر الآية ٢٨

وطالب الفقه الدينى والفهم عن الله ورسوله ، لابد أن تتحقق فيه شروط عديدة ، اذا جمعت فى شخص ما ، صار مثاليا وربانيا ، منها : نقاء سريرته ، وصفاء عقيدته ، وسلامة قريحته ، واعتصامه بحبل الله المتين ، واستنارته بالذكر الحكيم ، ومتابعته سنة سيد المرسلين ، بعد ذلك مطالعة أسرار الكتاب وتحصيل ما بثه الصالحون ، وَوَعْي ما أثبته الحفاظ المحققون ، ومتابعة ما يصدره من فتاوى العلماء العاملون ، كل هذه ، وفضل الله وتوفيقه لابد أن يصدر عنها طالب الفقه عن الله ورسوله ، حتى يكون وريثا للنبوة ، سواء فى الذكر أو الأنثى ، ولا فرق الا الاسلام وحده ، فهل رأيت مثالية أفضل من هذه ؟ أراك تنطق كلا .

ومع هذا كان جل العلماء المسلمين ، أصحاب أعمال يمارسونها ليحصل لهم منها كسب القوت ، وحتى لايراق ماء الوجه ، وقد علموا أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وبالنظر الى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نجد أبابكر الصديق من كتبة الوحي ، يحمل على كتفين أثوابا من القماش يعرضها على الناس فيحصل له منها كسب مشروع ، يدفع به عن نفسه وأهله غائلة الدهر ، بل ويساهم فى اعداد جيش الاسلام ، ولا يرى فى ذلك عيبا ، حتى بعد أن صار أميرا للمؤمنين ، خليفة للرسول صلى الله عليه وسلم .

أما عمر رضى الله عنه ، فلم يفته أن يساهم فى تدريب أبناء المسلمين على اكتساب قوتهم الحلال من عمل أيديهم حتى كادت تكون صنعة له ، ويكره رضى الله عنه الكسالى ، بحجة العبادة ، والخاملين بدعوى الزهد ، ومن يحملون فى ملابسهم علامات عدم النظافة بحجة الخشونة والورع ، بل قد أثر عنه ، أنه دخل المسجد يوما وهو أمير للمؤمنين ، فوجد رجلا جالسا ، ولما سأل عن مَنْ يعوله ، فكان جوابه أخ له فضربه عمر بدرته المشهورة ، وقال قولته المعروفة ، لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى ، فان السماء لاتمطر ذهبا ولا فضة .

ولم ينس وهو أمير المؤمنين – وكان الوحى يؤيده حال حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى كثير من الأمور الاجتهادية ، كالحجاب وأسرى بدر – أن يحمل ، وقصة المرأة المسلمة مع أبنائها والقدر التى تغلى فيها الحصى مشهورة ومع هذا لم يرفى العمل آية منقصة ، بل كان يحمل ما يحتاج اليه المضطر بنفسه وينكر ذاته ، لعل الخير يصل فعلا لصاحبه .

وأما عثمان بن عفان ، فلا أحد يجهل منزلته وعبد الرحمن بن عوف ، حتى بعد الهجرة ، وما كان لهما من تجارة واسعة أغنت المسلمين بفضل الله أيام الشدة ، كما كانت تجارته مصدر تجهيز جيش العسرة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومثلهم كثير حفل بهم التاريخ الاسلامى ، ومع هذا كانوا علماء بالقرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، وعلومها ، والأحكام الشرعية ، كما كانت لهم فتاواهم التى نالت الاجماع وكانت مصدر نفع للمسلمين أجمعين ، ولو طلبوا أن تكفلهم الأمة ، ويتفرغوا للناحية الدينية ، لما وجدوا من يرفض لأحدهم هذا المطلب ، ولكنهم شاركوا فى هذا وذاك وكان لهم بفضل الله النصيب الأوفى .

المثالية فى العمل المِهَنى :

كره الاسلام أن يجلس المرء منتظرا أن تمطر السماء ذهبا أو تسقط عليه كسفا به فضة ، وانما حفل الاسلام بصور زاهية للعمل المهنى ، حتى لتعد بحق مضرب الأمثال ، ونسوق لذلك أمثلة عدة :

= فى النجارة :

كان للرسول صلى الله عليه وسلم ، جذع يخطب عليه الجمعة وهو بالمدينة وكان أهل الروم أصحاب سبق فى ميدان التجارة ، فذهب غلام اليهم وتعلمها منهم ، ثم عاد الى المدينة فصنع للرسول صلى الله عليه وسلم منبرا من الخشب يجلس عليه ويخطب فلما دخل الرسول المسجد وجد المنبر ، فسأل عن صانعه

فقالوا له القصة فدعا رسول الله له بالبركة فى ماله وأهله وولده ، وذلك حافز لما بعده ، حافز للانطلاق نحو صناعة النجارة ، التى أفادت المسلمين فيما بعد وصاروا أصحاب فن وصناعة .

فى الصناعة :

كان مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينار بواسطة السرج القديمة التى اذا هبت عليها الريح أطفأتها ، وكان أهل الفرس أصحاب صناعة متقدمة فى القناديل ، فذهب اليهم واحد من المسلمين وتعلمها منهم ثم صنع قنديلا ينار به مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويدخل الرسول الكريم مسجده ، فيجد القنديل وقد أناره ، فيسأل الرسول عن فاعله ، فيقولون له القصة ، فيقول صلى الله عليه وسلم ، اللهم نور قبره كما نور مسجدنا هذا " (١) وليس بعد هذه الشهادة والشفاعة من رسول الله والدعوة لصاحب تلك الصناعة الا أن يزيد فيها ويتقدم ، فقد صار زاده ، تقوى الله وحبه خدمته لله ورسوله ، ومن كان زاده كذلك فلا ريب أنه من المقربين .

ولعل الناظر الى المثلين الماضيين يخالجه شك فى أن يطلب المزيد من مثالية الاسلام فى العمل فنذكر له ، ما اشتهر فى كتب السنة من قصة القدوم وصاحبه ومفادها : " أن رجلا جاء يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من المال ، رغم أنه سليم معافى لا يحجبه عن العمل الا حب المسألة ، وهو مؤمن أنصارى . فقال الرسول الكريم له أما فى بيتك شئ ؟ وكأنه يقرره ويعلمه قال الرجل : بلى حلس (كساء غليظ) نلبس بعضه ونبسط بعضه (نجعل بعضه فرشا والآخر غطاء) ، وقعب نشرب فيه من الماء (كالكوب المعروف الآن) . فقال الرسول : ائتنى بهما (الحلس والعقب) فأتى بهما رسول الله فأخذهما

---

(١) حديث شريف .

صلى الله عليه وسلم بيده ، وقال : من يشترى هذين ؟ وكان فى جمع من أصحابه ، قال رجل : أنا آخذهما بدرهم ، قال الرسول : من يزيد على درهم (مرتين أو ثلاثا) ، قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين فأعطاهما اياه وأخذ الدرهمين ، فأعطاهما للأنصارى وقال الرسول له ، اشتر بأحدهما طعاما فانبذه الى أهلك ، وأشتر بالآخر قدوما فأتنى به ، فأتاه به ، فشد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عودا بيده (صنع له الرسول يدا) ثم سلمه للأنصارى وقال الرسول له ، اذهب فاحتطب ، ولا أرينك خمسة عشر يوما ،ففعل الرجل ، فلما انقضت الأيام ، جاء الرجل وقد احتطب وباع واصاب دراهم عدة فاشترى ببعضها ثوبا ، وببعضها طعاما ، فقال رسول الله " هذا خير من أن تجيء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة ، ان المسألة لا تحل الا لثلاثة لذى فقر مدقع ، أو لذى غرم مفظع ، أو لذى دم موجع " (١) ومن هذا كثير حفلت به كتب السنة المطهرة ، وتخصصت له أبواب بأكملها ، فليرجع اليها من شاء المزيد .

ومثل هذا العمل المهنى (الحرفى) كان عمل أغلب الأنبياء والمرسلين فقد ورد فى الحديث الشريف " عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : كان داود عليه السلام ، لا يأكل الا من عمل يده (٢) ، وعن المقداد بن معد يكرب رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ما أكل أحد طعاما قط ، خيرا من أن يأكل من عمل يديه ، وان نبى الله داود صلى الله عليه وسلم كان يأكل من عمل يده " (٣) ومعلوم أن نبى الله داود كان

(١) رواه أبو داود والبيهقى والترمذى وأحمد ،وهى قصة مشهورة .
(٢) رواه البخارى .
(٣) رواه البخارى .

ذا صنعة ماهرة ، وقال الله تعالى عنه " وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ " (١) حتى صار من المؤكد أن صناعة الدروع ووسائل الحرب دفاعا وهجوما قد فكر فيها نبى الله داود ، وأنه باشرها وقام بتصنيعها[٢] وقال الله تعالى : " وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ، أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ " (٣) .

وكان عمله هذا هو الذي يقتات منه ، رغم أنه صاحب ملك واسع ، وثراء موروث ، ولعل هذا ما يرشد اليه قوله تعالى : " اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ، وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ، إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ، وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ، وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ " (٤)

وكان نبى الله زكريا ذا حرفة ماهرة فقال : صلى الله علية وسلم "كان زكريا عليه السلام نجارا " (٥) كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صباه راعيا للغنم ، ثم فى شبابه تاجرا ، وكان موسى كليم الله مؤجرا ، وكان عيسى عليه السلام نجارا ، وكذلك نوح عليه السلام ، اذن مثالية الاسلام فى العمل المهنى خالدة بخلوده ، لأنه الدين القويم ، وسنة الأنبياء ونهج المرسلين وهذا ما دعى الى النظر فيه بعين حاقدة ترتد ، وعين ذاكية تلتمس الأمن فتهرع الى الاسلام فى رحابة ويسر .

(١) سورة الانبياء الآية ٨٠
(٢) راجع تفسير الطبرى فى الآية السابقة
(٣) سورة سبأ الآيتان ١٠ ، ١١
(٤) سورة ص الآيات ١٧ هـ ٢٠
(٥) رواه مسلم .

المثالية فى استحقاق العامل الأجـــر :

فرضت ديانات تعددية على العامل رقابة قانونية ، يتعلق بها أجـــره ، وفرضت المزيد من القوانين لتعالج القصور فى الصور السابقة ، وكلمـــا أزدادت القوانين ، وكثرت الرقابـــة ، قلت كفاءة العامل ، وانحطت قيمة العمل ، حتـى لو صـــيروا مع كل عامل رقيبا عليه ، وما مرجع ذلك الا لأن العامل يسيطر عليـــه شبح الفصل التعسفى ، ويلهب ظهره سوط الرقابة القانونية ، التى انتزعـت منـه الخوف من الخالق وعلمته الهرب من رقابة الدين .

وكلما حاولوا انتزاع مهارة العامل تحت اسم الحوافز ، بخل بها لعله يصل الى المزيد ، لأن العلاقة بين العامل والعمل علاقة وقتية ، قائمة على انقضـــاء المهام ، وانتهاء الأعمال ، لذا يضن العامل بها ، لعدم تأمين مستقبله المادى والعلاجى فى الدنيا ، واحساسه بأنه يعيش لحظته فقط ، فليهنأ بها وعلى قـدر ما يتيسر له ، ومن هنا فشلت جهود المصالحة المستمرة بين العمل والعمال ،وكم من نقابة ولدت لتطالب بحقوق العمال ، فاستقطب زعماؤها ، وكأنها ماتت يـــوم ولدت ، يتساوى فى ذلك النظام الاشتراكى والرأسمالى والمختلط ، وعلى أنقاضها تقوم ثورات عمالية ، وتنتهى الى نقابات ويتعدد المشهد ويتكرر الموقف وتظـــل المسرحية تنتقل من مكان الى آخر ، تحمل فى ثناياها ضحايا الجوع ، وأبطـــال الهوس ، وتجار العواطف ، ودعاة الحرية ، ورؤس المطالب الشعبية . (١)

بيد أن مثالية الاسلام فى استحقاق العامل الأجر ، مرهونة بانتهائه منـه وعلى الوجه الأمثل ، والأجر الذى يتناسب مع طبيعة العمل وقيمته من الناحيـــة

(١) حدث هذا فى كثير من بلدان العالم المتحضر ، ولعل بولندا وفاليسيـــا الذى طالب للعمال بحقوقهم ،فاعتقل واعتبره البعض بطلا نقابيا ، وصيره البعض مبتزا ثوريا ، ومثله فى هولندا والثورات التى تتوالى فى فرنسا وانجلترا والمانيا مما اضطر بعض هذه البلدان الى تغيير حكوماتها وكذلك البطالة المنتشرة فى أمريكا رغم تقدمها المادى .

الفنية والحقيقية ، فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم " أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه " وما من شك فى أن حصول العامل على أجره فور انتهائه منه ضمان أكيد لحياته ولحصوله على قيمة ما يبذله ، فهو لذلك يتفانى فى اتقانه ، ويبذل ما استطاع فى معالجته يراقب فى فعله قول الرسول صلى الله عليه وسلم " إن الله يحب إذا عمل أحدكم العمل أن يتقنه " (١) .

واستحقاق العامل الأجر فى الاسلام ضرورى ، سواء كان العامل (الأجير) طول الوقت أو بعضه ، بل ان الاسلام جعل للعامل الدائم حقوقا لدى صاحب العمل ، وجعلها كقاعدة ملزمة ، بحيث يترتب عليها ما يترتب لأفراد أسرة صاحب العمل نفسه ، فيقول عليه السلام فى حديث جامع " اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، فان كلفتموهم فأعينوهم " (٢)

فأى مثالية مذهبية أو طائفية ، أو حتى فكرية ، تعدل تلك التى فرضها الاسلام وطبقها ، فالتزم بها العامل وصاحب العمل ، دون مراقبة قانون وضعى قاصر ، تبتزه الأهواء ، وتمزقه الرغبات ، ويستبدل به غيره كلما نهض ناهض ، أو أستولى على السلطة متسلط ، يحكم فيها برأى تجار العواطف ، وينادى بين الناس أنه رب ثروة المحرومين ، ولا شك أن كل منصف يجد البون شاسعا ، بين مثالية الاسلام فى استحقاق العامل الأجر وغيرها من مثاليات الملل والنحل ، أو المذاهب والفرق كلها ، التى يدعى أصحابها والقائمون عليها أنها أساس التقدم وأم الحضارة المادية بل والعلمية والروحية ، وفرق بين الدعوى والدليل .

---

(١) كشف الخفاء ج ١ ص ٢٨٥ — ٢٨٦ والحديث رواه أبو يعلى والعسكرى عن عائشة مرفوعا ، ورواه بلفظ آخر البيهقى والطبرانى .

(٢) رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين .

ثم ان حقوق العامل فى الاسلام ، لم تقتصر على ما يقوم به من عمل ، بل انها تعدته الى تأمين العامل نفسه على بدنه ، فأوجبت له الدية ان أجبره صاحب العمل على ما يودى بحياته ، ولو كان بغير علمه (١) ، واعتبر من باب القتل الخطأ ، وأوجبت له ولأولاده فى مال صاحب العمل تعويضا ، عن كل ضرر يلحق به ، ويقدره القاضى المسلم الكفء الملتزم بأحكام الله ، فى كتابه وسنة رسوله

من هنا فان مقابلة أجر العامل فى الاسلام ، بغيره من النظم الأخرى دينية أو وضعية ، يؤكد انعدام المقارنة وثقل ميزان الاسلام على غيره ، ولعل هذا وغيره من الأسباب التى دفعت العديد الى الدخول فى الاسلام ، ومحاولة تبليغه الى كل مكان ، ليعم العدل الاجتماعى ، وتتحقق المساواة الكريمة ، بين الأمم والأفراد والجماعات ، لذلك نجد العديد ممن دخلوا فى الاسلام مسرعين اليه قد راودهم عدة مرات ، جمال المثالية المتحققة فى العمل وسوقه والعامل وأجره ، فاندفعوا اليه ، محاولين تحقيق الحياة الكريمة ، فى ظل دين قويم ، وتشريع الهى حكيم .

وليس عجز غيره هو السبب الوحيد فى اعتناق الاسلام ، انما عقيدة الاسلام الصافية التى تخلى بين المرء وخالقه من ناحية ، وبين المرء وتحمل مسئولية مايفعل من ناحية ثانية ، واستقلاله بفعل نفسه ، وعدم تحمله أعباء ما أقترف غيره ، كل هذا كان من العوامل الذاتية فى الاسلام ، التى جعلت الداخلين فيه ، يسارعون اليه ، بعد روية وامعان تفكير واطالة نظر .

---

(١) فصلت كتب الأحكام فى باب الجنايات ، أنواع القتل ، فجعلت على القاتل العمد القصاص أو الدية ان رضيها العاقلة ، وفصلت كذلك فى الدية وأنواعها ، ووجوه استحقاقها ، ومن يستحقونها ، فليرجع اليه فى كتب الفقه من شاء .

ودونك أمثلة عديدة لما نقول :

١ ـ اندفاع عظماء قريش على الدخول فى الاسلام ، لأنه يحقق لهم الأمن العقدى ، والأمن التجارى ، ويحفظ لهم دماءهم ، ويصون أعراضهم كأبى بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعمر بن الخطاب ، ومصعب بن عمير ، وأسيد بن خضير ، وسعد بن معاذ وغيرهم من سادات العرب بمكة والمدينة ، مما تنوء عن حمله كتب السيرة والتاريخ .

٢ ـ انفلات أحبار من اليهود ـ بحكم ثقافتهم ، وسعة اطلاعهم ، واحترامهم لبقايا دينهم ـ ودخولهم فى الاسلام ، مثنى وفرادى ، دون خوف من سلطان المعبد أو محرقته ، ولا رهبة من طغيان التوراة المدعاة ، لأنهم وجدوا فى الاسلام ما يكفيهم كل هؤلاء وأولئك ، كأُبَيّ بن كعب وعبد الله ابن سلام ، وكعب الأحبار ، وغيرهم من مسلمة أهل الكتاب ، الذين انطلقوا من دينهم اليهودى ، الى دين الاسلام ، لأنهم شعروا فيه بالصدق فصدقوا ونعموا من خلاله بالأمن ، وتمتعوا فى رحابه بالأمان ، حتى جاء القرآن الكريم يبشرهم بقوله تعالى " وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ، وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ، أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ " (١) .

---

(١) سورة القصص الآيتان ٥١ ـ ٥٤

المثاليـة في استغلال الملكية العامة :

ونعني بها ملكية المجتمع كله ، ووجوه استغلالها لصالح أفراده كلهـم ، كالمواصلات العامة ، والطرق العامة والمرافق ، ومصادر الثروة المشتركة ، وميـاه الأنهار والبحـار ، ومواطن الرعي ، والظل ، والكلأ ، وكل ما من شـأنـه أن يستفيد به أفراد المجتمع كلهم ، أو الغالب الأعم فيهم ، سواء في الحال ، أو الاستقبال وسواء كانت الفائدة مباشرة ، أو تعود على الأمـة الاسلامية كلهـا ، باعتبارها ذات سيادة مستقلة في شئونها الخاصة ، كالبترول ومشتقاته ، وركائـز الأرض ، والمعادن ومشتقاتها ، وما يحفظ على الأمة دينها وصحتها وقوتها ، ولعل هذا ما عناه الحديث الشريف في قوله صلى الله عليه وسلم :

" الناس شركاء في ثلاثة : الماء ، والكلأ ، والنار " بحيث تصير محاولات السيطرة على هذه الشركة ، نوعا من حرمان أصحاب الحقوق من حقوقهم ، وتصير محاولات بيعها ، كمحاولات حجبها ، نوعا من الحرام الذي تأباه عقيدة تنتسب الى الله تعالى .

الا اذا كان ذلك الحجب نوعيا ، ولغرض تنمية تلك الشركة ، بحيـث يتضاعف العائد ، فيكفي الجم الغفير ، وكان من قبل لا يكفي العدد اليسـير ، وبشرط ألا يكون الحجب للحرمان والتشفي ، والا يكون من باب اظهار القوة لفريق من المنتفعين بالثروة العامة ، كما عبر عن ذلك عمرو ابن كلثوم قديما حين قال :

ونشرب ان وردنا الماء صـفوا ويشرب غيرنا كـدرا وطينـا

ومما يؤكد وجود الملكية العامة ، ويحرّم على كل الناس استغلالها لأفـراد معينين قوله عليه الصلاة والسلام " الناس شركاء في ثلاثة " الملح ، والكلأ ، والمرعى" والملح هو السمك الذي يقطن البحار ، ويسافر في المياه مسافات طوال ، ولاشك

أن الماء فى الحديث السابق أصل توجد فيه الاسماك ، وبالتالى فالشركة متضامنة فى الماء وأسماكه ومافيه يحل الله تعالى واستخدام المياه كوسيلة انتقال ، وقد عرفت فى العصر الحديث بالمياه الاقليمية ، كما تخصص لها نوع من القانون الوضعى يسمى " القانون البحرى " .

ويدخل فى الملكية العامة ، الحدود الأرضية للدولة ، والحدود البحرية والحدود الجوية ، أو ما يسمى " بالقانون الجوى " ، وهو من ناحية الدلالة ، مخالف لتعبير القانون الفضائى ، ومخالف فى الفهم للقانون الجوى الذى عنى بالمواصلات الجوية ، وأحكام انضباطها ، وشروط استخدامها ، وكيفية معالجتها ، والقواعد المنظمة لذلك كله ، مما يخرجها عن حيز البحث اذا عملت على ابرازها فى كل جزئياتها .

ولاشك أن " اعتراف الاسلام بالملكية العامة ، صمام أمن يكفكف اندفاع نزعة الانسان الفطرية فى التملك ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، اتاحة فرص كافية لخدمات متنوعة تقدم لجماهير المواطنين ، فى الصور التى تلائم البيئات والأجيال " (١) وليس معنى ذلك أن تصير كل ملكية خاصة ملكية عامة ، يعبث بها الفاسدون ، تحت اسم القطاع العام ، أو المؤسسات العامة ، أو اذا وصلت الملكية الخاصة الى حد ما ، فانها تحرم من الزيادة ، ويتسلط عليها الطامعون باسم التأميم الذى يخالف جوهر الدين ، وانما معناه ، وجود الملكية العامة ، لجميع أفراد المجتمع المسلم بأسره ، وبجوارها الملكية الخاصة بكل فرد فى ذات المجتمع بحيث لاتطغى حدود التصرفات الشخصية فى الملكية الخاصة على مثلها أو على المجتمع كله .

---

(١) الدكتور / يوسف عبد الهادى الشال — الاسلام وبناء المجتمع الفاضل ص ٢٥٦ ط مجمع البحوث الاسلامية .

كما أن الغاية من المحافظة على الملكية العامة ، هى المحافظة على كيان المجتمع كله ، بحيث تكون تصرفات القائمين عليها تحت الرقابة المباشرة للحاكم المسلم أو من ينيبه من قضاة المسلمين العدول ، أما اذا وضعت تحت رقابة قاصرة ، كالأجهزة الشعبية أو المحلية ، المنزوعة الأصل فى كثير من الأحيان والتى تفتقد الكيان القرآنى والنبوى فى داخلها ، فان بقاءها يكون عرضة للخسارة المحققة ، والديون المتلاحقة ، والاهمال والغش ، ولايقع العبء الا على كاهل المجتمع المطحون ، وبالأخص الفرد الفقير فيه الذى تمن عليه الدولة بالدعم ، الذى لا أساس له فى شرع الاسلام ، لأنه يصل الى غير مستحقه ، ويقع فى غير يد طالبه .

ثم ان حدود الملكية العامة مقيدة ، بحالات السلم والحرب التى تفرضها طبيعة الدفاع عن المجتمع المسلم ، والتى يخول للحاكم المسلم فيها اتخاذ ما يراه مجلس شورى المسلمين مناسبا ، حتى ولو كان ذلك فى حكم شرعى يمكن للحاكم المسلم أن يؤجل تطبيقه ، كما فعل عمر رضى الله تعالى عنه فى عام المجاعة ، وان لم يكن فى حرب خارجية مع أعداء معروفين ، بل كان فى حرب مع ظروف طبيعية ابتلاء من الله — كالجفاف — ، واصابات النباتات والمحاصيل الرئيسية للأمة الاسلامية ، ويدخل فى نطاق الملكية العامة ، ما يؤول للأمة الاسلامية من غيرها كالرقيق والغنيمة وما كان على سبيل الهبة والمنح والهدايا بأنواعها .

كما يدخل فى الملكية العامة للدولة ، مال الوقف ، شريطة أن تنفذ وصية الواقف بحجته أولاً ، دون لىّ لها عن الغرض ، أو سرف فى الانفاق ، وكذلك كل ما يعود للأمة الاسلامية من علم أبنائها ، ومهارة بنيها كحقوق التأليف ، وبراءات الاختراع ، كل ذلك اذا كانت الأمة هى الممثلة لأبنائها ، ولم يوجد لهم وارث شرعى تؤول اليه التركة ، حينئذ تكون الأمة هى المكان الوحيد المناط به تلك

الحقوق ، وتدخل جميعها فى اطار الملكية العامة والذى يمثله اسلاميا بيت مال المسلمين ، شريطة أن يكون خازنه أعلم الناس بالاسلام وأشدهم عملا به .

وحتى لاتضيع الملكية العامة بين دروب المسائل ، حفظ لها الاسلام مقومات ترتكز عليها من القرآن الكريم والسنة المطهرة ، بحيث تعتبر أسانيد تشريعية .

فمن القرآن الكريم :

١ – قوله تعالى " يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ " (١) .

٢ – قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ " (٢) .

ومن السنة المطهرة :

١ – مارواه نافع عن عبدالله بن عمر قال " حمى رسول الله صلى الله عليه وسلم النقيع (وهى أرض معروفة بالمدينة) لخيل المسلمين " (٣) وهى الأرض التى خصصها رسول الله صلى الله عليه وسلم لترعى فيها الخيل الغازية فى سبيل الله .

٢ – لما فتح الله على المسلمين ، قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم خيبر على المسلمين ، فجعلها نصفين " جعل أحدهما للنوائب ، والوفود التى تفد على المسلمين " (٤) والنصف الثانى لمقاتلى المسلمين ، دون تخصيص فى الأول أو الثانى .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦٨
(٢) سورة البقرة الآية ١٧٢
(٣) أبو عبيد – الأموال ص ٤١٧
(٤) الدكتور / يوسف عبدالهادى الشال – الاسلام وبناء المجتمع الفاضل ص ٢٦٠

وما من شك فى أن احترام الاسلام للملكية العامة ، وعمله على استثمارهـا لصالح المجتمع كله ، وكونها مرنة قابلة للحركة ، جعل الكثيرين ينظرون الــى الاسلام نظرة احترام وتقدير ، فلم تمنعهم الموانع ، ولم تصدهم الحواجــز ، فانطلقوا الى الاسلام معتنقين ولدعوته مساندين وتحت رايته مدافعين ومستظلين .

المثالية فى العفــو العام :

برزت فكرة العفو العام — عند أمم كثيرة — كنوع من تخفيف مدة العقوبــة المقررة قانونا ، حيث يستفيد به عدد محدود ممن ارتكبوا مخالفات دينية توجب عليهم عقوباتها المقررة شرعا ، والتى لابد من الوفاء بها ، عند تحقق وجــود الحاكم المسلم الملتزم ، لقيادة المجتمع المسلم الملتزم ، المنضبط على قواعــد الشرع الشريف ، وعند فقد الحاكم المسلم ، والمجتمع المسلم ، أو فقد الالتــزام بالشرع الاسلامى الحنيف ، تظهر سلطة القانون الوضعى ، الذى يقع واضعــو ، فى الأخطاء من الوهلة الأولى لمحاولة تطبيقه ، رغم تعدد نصوصه ، وكثرة مواده ، فيحتاج المجتمع الى قانون آخر يصلح ثغرات الأول ، ويأتى الثالث ليصلح الثانى وهلم جرا ، ولن تفلح القوانين الوضعية كلها فى تحقيق حلم البشرية المهددة بالافلاس والخراب .

غير أن فكرة العفو العام ، شغلت أذهان الكثيرين من المفكرين ، وانتفــع بها عدد من المجرمين أو المظلومين مما يجعلنا نتطرق اليها ، لنعرف نظــرة الاسلام نحوها ، وهل يقرها أم يرفضها ؟ وهل تبقى على حالها أم يعدل فيها وهل له مثالية نحوها ، أم أنه وقف حيالها ، لايقترب منها ولا يبتعد عنها ؟ كل تلك وأمثالها أسئلة نحاول الاجابة عليها .

ولعل أول البدايات للاجابة عليها تتمثل فى القرآن الكريم ، فى قوله تعالى " وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ، وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ، وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ " (١) وذلك النص القرآنى أصل انبعثت بـه فكرة العفو العام ، بصورة مثلى ، مما يجعلنا نتحدث عن مقاصد الدين ، وطرق المحافظة عليها ، وأنواع العقوبات ، وكيفية تقسيمها وتنويعها والأسس التى قامت عليها ، وذلك ربما أخرج عن المقصد .

قال تعالى : " خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ " (٢) ، ففى الآية " أمر له عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق ، أى بالسهل اليسير فى معاملة الناس ومعاشرتهم ، قال ابن كثير ، وهذا أشهر الأقوال ، ويشهد له قول جبريل للرسول صلى الله عليه وسلم " ان الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك ، وتعطى من حرمك ، وتصل من قطعك " (٣) .

ولا شك أن فكرة العفو ، تخالف مبدأ توقيع الجزاء ، لأن من وقع فيما يوجب حدا ، لا يبرأ حتى يقتص منه ان كان قصاصا أو مثله ، أو يلقى جزاء فعلته ، على سبيل المثال ، القتل العمد للمؤمن فجزاء القاتل القصاص ، ثم يأتى موقفه الثانى فى الآخرة ، متمثلا فى قوله تعالى " وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ ، وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٤) . اذن ففيه القصاص ، ولا محيص عنه الى الدية ، الا اذا رغبها أهل المقتول ، وذلك عفو جاء به القرآن الكريم فى قوله تعالى :

---

(١) سورة النحل الآيات ١٢٦ - ١٢٨
(٢) سورة الأعراف الآية ١٩٩
(٣) الشيخ محمد على الصابونى - صفوة التفاسير جـ٤ ص ٤٨٨
(٤) سورة النساء الآية ٩٣

" يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ، الحر بالحر والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف ، وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ، ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون " (١)

وقد روى مجاهد أن " ابن عباس رضى الله عنه قال " فمن عفي له من أخيه شيء " فالعفو أن يقبل الدية في العمد " (٢) وذلك لون من العفو ، وتحول من القصاص إلى الدية ، مادام ذلك في القتل العمد ، بحيث لا يكون العفو كاملا ، بمعنى أنه لا قصاص ولا دية في العمد ، وإلا لتحولت المجتمعات الى فوضى ، وجاهلية لا حدود لها ، لذا جاءت الآية التالية مؤكدة على استحقاق القاتل العمد القتل قصاصا ، والدية عفوا ، وهي دية مغلظة ، على ما ذكر في كتب الفقه والأحكام .

غير أن القتل الخطأ يدخل في دائرة العفو ، لأنه يتعلق بالكفارة والدية ولا مجال فيه للقصاص ، على ما أفاضت فيه كتب الأصول والفقه والأحكام ، وجاء محكما في قوله تعالى " وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ، ومن قتل مؤمنا خطأ ، فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله ، وكان الله عليما حكيما " (٣) .

---

(١) سورة البقرة الآيتان ١٧٨ / ١٧٩

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٠٠ طبعة الشعب .

(٣) سورة النساء الآية ٩٢ .

من هنا فان فكرة العفو بارزة فى القتل بأنواعه : العمد — شبه العمد — الخطأ ، والقتل أقسى ما تعانيه البشرية ، لأنه انهاء حياة الآخرين بلا مقابل والحياة لاتعوض ، والمقتول الى الدنيا أبدا لا يعود .

والسرقة : حكم شرعى ، ويقطع السارق بحد شرعى ، طالما كان المسروق نصابا وفى حرز ، ولا شبهة ولا اكراه ، ولا حاجة على المجتمع مفروضة كعام المجاعة مثلا ، فان السارق بذلك يقطع حدا ، لقوله تعالى : " وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " (١) وحتى لا تترك الأمور فى غير وضعها ، قيض الله الحكام المسلمين لتنفيذ تلك العقوبات وأباح لهم ، بفعل رسولهم الكريم ، أن يقوموا عليها ، ويجتهدوا فى تطبيقها والا يحدوا عنها ، والا فهم معطلون لشرع الله وعليهم الوزر .

من ثم ، كانت السرقة أنواعا ، من ناحية السارق ، ومن ناحية المسروق ، واقتران كل منهما بالاعتداء أو انقاصه أو هلاكه ، وكل ذلك فى اطار محدد ، وتحت ملامح واضحة ، بحيث لا يغيب عن الحاكم المسلم ما هدف اليه الشرع الشريف ، حتى ولو كان العقاب من لون التعزير أو التغريب ، والعفو فيها محدد بموازين لا تخل بأمن المجتمع ولا بأحد أفراده .

فمثلا اذا اعتدى فرد على غيره ، فأخذ ماله عنوة ، ولم يتمكن من مقاومته ثم تعرف عليه وفى غيبة من رقابته ، تمكن المعتدى عليه من ماله الذى بيد المعتدى فسرقه ، فانه فى تلك الحالة لا يحد ، لأنه ماله الذى سرق منه ، وقد ظفر به (٢).

---

(١) سورة المائدة الآية ٣٨

(٢) تلك مسألة الظفر فى الأصول والأحكام ، فراجعها فى مواطنها .

وان كان يجوز العفو عنه ، لو أعترف بأنه أخذ المال ظنا منه أنه ماله جميعه ، ثم بان للحاكم المسلم ، أنه أخذ زيادة ، فان الحاكم له الحق فى العفو عنه ، عن تلك الزيادة ، مع ارجاعها للمسروق منه .

الزنــا : جرم بشع ، وذنب كبير ، فيه تدنيس للفراش ، والحاق للعار وادخال النسب الى غير أهله ، ثم فيه اراقة لحرمة الشرع ، واهدار لكرامة البضع (ولو كان الرجل هو المكره على الزنا) وهو تعد على حدود الله ، وهو من الكبائر التى يستحق فاعلها القتل بها حدا ، مادام ثيبا ، بقوله صلى الله عليه وسلم " لايحل دم امرئ مسلم ، يشهد أن لا اله الا الله ، وانى رسول الله ، الا باحدى ثلاث :

- الثيب الزانى
- والنفس بالنفس
- والتارك لدينه ، المفارق للجماعة (١) متفق عليه .

ومع هذا ، فان فكرة العفو فيه عن التائب ، فيها من العموم ما يجعلها علاقة خاصة لحد بعيد ، بحيث لاتثبت الا بشهود أربعة ، أو اعتراف الزانى نفسه ، وعلى نفسه فقط ، لأن اعترافه بفعله لايمكنه من الاشهاد على من فعل به لعدم توافر الأربعة ، وأن يكون الاعتراف ناشئا عن سلامة دين ، ويقظة ضمير فاذا أقر أحدهما بأنه ارتكب الفعلة ، وسمى الثانى ، يحد لا بفعلته فقط ، وانما بقذفه غيره كذلك ، فهما حدان مختلفان ، حد القذف ، وحد الزنا .

فاذا رجع الفاعل ، وقدم نفسه بين يدى الحاكم المسلم الملتزم ، وأقيم عليه الحد ، فان عفو الله يشمله ، وان فقد الحاكم المسلم بحيث اذا أقر لايقام عليه

(١) البخارى كتاب الديات باب قول الله تعالى " ان النفس بالنفس والعين بالعين ج ١٢ ص ٢٠١ حديث رقم ٦٨٧٨ وصحيح مسلم ج٤ ص ٢٤٣ .

الحد ، فانه تكفيه توبته الصادقة ، ويبادر بالأعمال الصالحة ، حتى يحظى بالعفو العام الشامل من الله ، أخذا من قوله تعالى " وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ، وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ، إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا "(١)

إذن فكرة العفو العام أثر اسلامى ، له جذور وأسس ثابتة فى نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة ، لكن بشروط محددة ، بها يستقر أمر المجتمع ، ويستتب أمنه ، وتتحقق فى أرجائه العدالة ، اذ لا يمكن العفو عن المسىء سواء بالتخفيف أو بالعفو العام ، الا اذا صدر منه ما يؤكد صدق توبته ، وشدة حزنه على ما وقع فيه من ذنب ، وحرصه الشديد على أن يظهر أمام المجتمع بصورة مثالية ، بحيث تنمحى الصورة المجرمة التى لصقت به لفعله السابق .

ومما يؤكد ما ذهبنا اليه ، فعله صلى الله عليه وسلم ، مع القرشيين فى الفتح الأعظم — فتح مكة المكرمة — بدين الاسلام ، فرغم أنه صلى الله عليه وسلم ، كان له عندهم دم كثير — دم سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ودماء شهداء المسلمين فى بدر وأحد وغيرها — الا أنه صلى الله عليه وسلم ، وقف على باب الكعبة ، بعد أن مكنه الله منها ، آمنة بدينه ، ثم خطب وقال " ألا كل دم أو مأثرة ، أو مال يدعى ، فهو تحت قدمى هاتين ، الا سدانة البيت ، وسقاية الحاج " . يا معشر قريش : ماتظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، ثم قال " اذهبوا فأنتم الطلقاء " (٢)

---

(١) سورة الفرقان الآيات ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠

(٢) الدكتور / محمود محمد زيادة — العرب وظهور الاسلام ص ٣١٨

لذا هبت قريش برجالها ونسائها وأطفالها ، يبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على السمع والطاعة ، رغم قساوة قلوبهم ، وغلظة أكبادهم ، وكانت نظرة الرسول صلى الله عليه وسلم اليهم ، بعفوه العام عنهم هى الركن الركين ، الذى ألان قلوبهم ، ورطب أكبادهم ، فأين هذا من فكرة العفو العام فى القوانين الوضعية ؟

لقد سمع العالم كله عن أحد زعماء الألمان ، والذين يطلق عليهم خصومهم اسم النازيين ، رغم أنه بلغ من الكبر عتيا ، واشتد به المرض قسيا ، وحطه الفقر شقيا ، ومع هذا لم يصدر عنه العفو العام ، مع أنه لم يثبت عليه ما يبيح اعتقاله وتعذيبه الى أحقاب حياته مما يتعرض له الآن ، انها مجرد اتهامات يطلقها الخصوم حتى ولو كان جنديا ، أو فى سلاح التموين ومكرها ، فأين هذا العفو من عفو الاسلام ، بل أين منزلة الثرى من الثريا ؟

" ولم يقف بر الرسول ورحمته وعفوه عند العفو العام ، بل عفا عن المجرمين الذين كان قد استثناهم فى دخول مكة ، وكان قد أمر بقتلهم وان تعلقوا بأستار الكعبة ، من أمثال " عكرمة بن أبى جهل " وصفوان بن أمية بن خلف ، وعبد الله ابن سعد بن أبى السرح ، وعبد الله بن خطل ، ووحشى بن حرب قاتل حمزة ابن عبد المطلب ، وهند بنت عتبة زوج أبى سفيان التى لاكت كبد حمزة ومثلت بجثته وغيرهم " ... فلما أعلن الرسول عفوه الشامل ، أطمع ذلك كثيرا من الصحابة فى العفو عن هؤلاء الذين أمر بقتلهم ، وقام شفيعا لكل واحد من هؤلاء واحد من الصحابة ، فقبل الرسول عليه السلام شفاعة الشافعين فى المذنبين "(١)

---

(١) المرجع السابق ص ٣١٩

وهكذا كانت مثالية الاسلام فى العفو العام ، تقوم على ما يلى :

١ — مثالية توفر الأمن للفرد :

فلا ثأر بعده يطالب به ، ولا دم خلفه يناديه ، ولا دية منقوصة تغض مضجعه ، إنه عفو بعد أداء الحقوق لتبرأ النفوس وتهدأ الجوانح ، عفو يأتى من مستحقه ، فقد نزل المهاجرون عند العفو العام على أهل مكة عن أموالهم التى كانت لهم أثناء هجرتهم ، وحبسها القرشيون عنهم ، وتنازلهم عنها فى الفتح ، مع قدرتهم عليها ، أوضح دليل على طيبة أنفسهم ، بما صنعوا ، فلم يجبرهم الحاكم عليها ، بل كانت من رغباتهم ولو رفضوا العفو ، وطالبوا بأموالهم ما منعهم منها مانع ، اذن هو عفو القادر ، المستطيع القصاص ، وذلك عفو مثالى .

٢ — مثالية تحقيق العدالة الاجتماعية :

فالعفو بقدره على الفقير والميسور ، ولهما أيضا عفو يتناسب مع الجرم الذى وقع ، دون نظر الى أصل من وقع فى الذنب ، أو منزلته الاجتماعية أو مكانته المالية أو الأدبية ، أو رصيده السياسى ، حتى ولو كان متحدثا باسم جماعة المسلمين ، كما لا تشفع لأحد مكانته حتى ولو كان حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانه لا ينجيه سبقه الى الاسلام من جرم وقع فيه ، ولعل أبرز مثال لذلك هو قصة المرأة المخزومية التى حكم الرسول فيها بقوله صلى الله عليه وسلم " والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها " (١) وبهذا تحقق فى الاسلام الخير كله ، فهفت اليه كل الجوانح واكتسب الأنصار ، فهل رأيت مثالية كهذه المثالية الاسلامية ؟ .

---

(١) حديث ، والقصة مشهورة .

الفصل الثالث

(رفض الاسلام للطبقية)

عاشت الطبقية — قبل الاسلام — ردحا طويلا من الزمن يشقى أبناء الطبقة الدنيا لينعم أبناء الطبقات الأخرى ، وفرضت على أصحاب الحاجة قيود لا حصر لها ، حتى كانت السوائم أفضل منهم ، وكلما أزداد النظام الطبقي تغلغلت الفوارق وتعمقت وفى كل شىء ، فعلى حين نرى الميسور يكرم ولو كان صعلوكا ، نلاحظ رقيق الحال مهانا ولو كان صاحب أسمى المبادىء وسالكا أرقى القيم .

فالفقير لا سلطان له على نفسه ، لأنها ملك لمن يطعمه ويأويه ، ولا قدرة له على ابداء رأيه ، لأنه فقد المقومات الأساسية لحرية ابداء الرأى ، ألا وهى كفايته مؤنة نفسه ومن يعول ، وكيف يبدى رأيا يعلم بعده أنه الى الحاجة والسؤال والمذلة مردود ، وأسرته لتعرض غدا للبيع فى السوق ، وفاء لدين قديم ، أو ردا لكفالة حان موعدها ، أو جمعا لدية بدلا من قصاص وربط لم يقترفه .

بيد أن المتابع لظروف الطبقية قبل الاسلام ، يواجه سيلا من النقائص عاشت فى العالم كله ، وكانت تقض مضاجع الناس ، وتزيل النوم من جفونهم رغم السهد وعناء السهر ، فالفقير خاضع لأحد أمرين :

أ — سلطة دنيوية :

تتمثل فى توفير الحماية له من بطش المعتدين ، وتوفير الاستقرار خوفا من زعزعة الحاكمين ، ولن يكون ذلك الا من خلال سلطة دنيوية قادرة على تحقيق رغباتها ولو على دماء الآخرين ، وذلك ما يجعل الفقير — قديما — يرضى بتلك الطبقية قبلية أو غير قبلية ، ولعل تلك الطبقية قد فرضت على الفقير الحلب والرعى ومشاركة المرأة أعمال المنزل ، حتى يصير الفقير عبدا مملوكا ، لا حول له ولا طول ، وهذا ما عبر عنه عنترة بن شداد حين أنكر والده نسبته اليه ورفض الاعتراف به كابن شرعى ، ولما استدارت الأيام لأبيه ، وتمكن اعداؤه منه ، حاول أن يدفع عنترة للحرب ، لكن عنترة أبى وقال نحن للحلب والصّر ، لا للحرب والكر ، وكان يقصد

من ذلك اظهار موقف أبيه أمام الرأى العام ، وحينئذ تراجع شداد واعترف بنسب عنترة اليه ، فانطلق عنترة محملا بأعباء الأحرار من حرب وقتال وانتصار ، ولولا الظروف المعاكسة لشداد ، لظل عنترة — كغيره من الأرقاء المغلوبين — لا هم له الا الرعى والضرع ، وتلك طبقية تفرق بين الانسان ونفسه ، وبينه وأخيه ، وهى لذلك مرفوضة بكل اشكالها من الناحية الاسلامية .

أما الاسلام الدين الحنيف ، فقد رفض الطبقية ، وأكد على مساواة الناس جميعا — العقلاء — فى كافة التكاليف العقدية والعملية والخلقية ، وأنهم جميعا أمام الله والشريعة سواء ، كما رفض كل المصطلحات التى تؤدى الى الطبقية فحارب الانتساب لغير الاسلام ، ونهى عن الاستعلاء على الناس ، وحض على مكافحة الرق بكل ألوانه ، وجعل الناس فى طلب العلم واقامة الحدود سواء ، بل رسم الصورة المثلى للقيم النبيلة وأكد على أن ذلك قاسم مشترك بين الرجل والمرأة ، بلا تفرقة وهو ما ذكرته الآيات الأخيرة من سورة آل عمران فى قوله تعالى : فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِى سَبِيلِى ، وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١) .

وحيث أن الاسلام قد رفض الطبقية ، فاننا نضع لذلك الأمثلة ، حتى يتأكد العقلاء أن الدخول فى دين الاسلام فضيلة كبرى ونعمة ما بعدها نعمة ، وأن الابتعاد عنه خسارة لا تعوض ، وذلك ما سوف يقرره الناس جميعا فى ظل هذا القرن العجيب رضوا أو كرهوا ، كذلك فان الاسلام قد طبق مثالية انفرد بها وحده بحيث لا يكاد القارئ عن الاسلام يطالع أولى الصفحات الا ويواجه بسيل من النماذج التى تؤكد له بكل سهولة ويسر أن الاسلام عام خالد ، وأنه رحمة الله لعباده وأنه الدين الوحيد الذى يجب اتباعه .

---

(١) سورة آل عمران الاية ١٩٥

ب — سلطة دينية :

خضع الفقير قبل الاسلام لسلطة دينية كنيسية أو معبدية يقررها الآباء ويتلوها الرهبان ، ويؤكد عليها الأحبار ، وقد أستمدوها من منافعهم الخاصة ، ونفوسهم الشحيحة ، دون أن يساندها منطق عادل ، أو يقرها شرع سليم واقتادوا الفقراء اليها ، حتى كأنها صنعت لهم وحدهم ولتطبق فيهم ، فنفر منها الجميع وما قبلوها الا على ضيم ، أما الاسلام فقد وضع التصور الدقيق حتى صار بحق الدين الذى يجب أن يتبع ، والنظام الصادق الذى يحرص الجميع على التعامل معه والاحتماء به وقد رفض الاسلام الطبقية الظالمة بكل صورها من ذلك ما يلى :

أ — رفض الاسلام للطبقية فى العبادة :

أكد الاسلام على أن الناس جميعا فى عبادة الله سواء ، كما أنهم جميعا أمام الله سواء ، لافرق بين واحد وآخر ، الا بقدر القرب من الله تعالى والاخلاص له تعالى فى العبادة ، لذا نما فى الناس شعور فياض بعدل الله تعالى ومثالية الاسلام من ذلك مايلى :

= الصلاة :

يؤمهم أعلمهم بكتاب الله تعالى ، وأحكام الصلاة ولا يشترط أن يكون غنيا أو فقيرا ، ذا حسب وجاه أولا ، المهم أن يكون هو أفقههم عن الله تعالى وأعلمهم بأمور دينهم ، وأحرصهم على القيام بواجبات دينه ، لا يخاف الا الله تعالى ، ولا يخشى أحدا سواه .

ولعل ذلك ما عناه الحديث الشريف ، فى تفضيل الناس بأعمالهم ، لا بأنسابهم فيقول صلى الله عليه وسلم " الناس سواسية كأسنان المشط ، لافضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى والعمل الصالح " ثم تلا قوله تعالى " إِنَّ أَكْرَمَكُمْ

عِنْدَ اللّٰهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " (١) .

ونبه اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله صلى الله عليه وسلم " ان الله لا ينظر الى صوركم وأجسادكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم " حتى كان من الموالى الأئمة الأعلام جنبا الى جنب مع أهل الحسب والنسب الرفيعين ، فذاك ابن مسعود يكاتف مصعب بن عمير فى الصلاة والجهاد والدعوة الى الله تعالى ، رغم أن ابن مسعود كان كعمار بن ياسر أجيرا يرعى الغنم لسيده قبل الاسلام واشتراه أبو بكر الصديق وأعتقه فى سبيل الله كما فعل بأمثاله ، ورغم أن مصعبا كان من أهل الحسب الرفيع والنسب والجاه ، وكان الوحيد لأسرة راحت تتطلع اليه ليكون واحدا من سدنة الأصنام ، الا أن الله قد هداه الى الاسلام ، فصار يكاتف ابن مسعود وعمارا وبلالا وغيرهم من فقراء المسلمين ، جمعت بينهم شريعة الاسلام فى الصلاة والعبادة الواحدة المتجهين فيها معا لله وحده .

بل ان الصلاة لم ترفض الطبقية فحسب ، ولكنها أرغمتها على الفرار من وجه المثالية الاسلامية ، فقد يكون الامام فقيرا ، ويؤم الأثرياء ، أو ضريرا ويؤم المبصرين أو مريضا (يتمكن من الصلاة) ويؤم الأصحاء ، وما صحت امامة واحد منهم الا لأنه الأكثر حفظا للقرآن الكريم ، والأجود فى تلاوته ، والأفقه عن الله بما فى القرآن الكريم من أحكام وعقيدة وأخلاق ، وقد يكون المأموم ميسورا ، مبصرا صحيحا ، ومع هذا ليس هو الأفقه عن الله فيقدم غيره عليه ضرورة للأثر المشهور فى ذلك " يؤم القوم أعلمهم بكتاب الله تعالى " .

ثم انهم فى الصلاة يتكاتفون فى مناكبهم ويتلاصقون بأقدامهم ، يتساوى فى ذلك الراعى والرعية ، الغنى والفقير ، الطويل والقصير ، بل ربما يكون الأضعف فى الصفوف الأول ، بينما يكون الميسور فى آخر الصلـ ، ولا ينقص الأول

(١) سورة الحجرات الآية ١٣

فقره كما لايزيد الثاني ثراؤه ، ويتحقق ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم أفضل صفوف الرجال أولها " ولم يشترط أن يكون في الأول القوى أو الضعيف ، ولا الفقير أو الميسور ، بل ان الاسلام حرص على دفع الناس الى الصف الأول والنداء ، ولم يقصد واحدا بعينه ولا من حيث نسبه ولا من حيث حسبه ولا اعتبار لشيء من ذلك أصلا ، انما الاعتبار الوحيد هو الايمان القوى الذى يقود صاحبه الى التعلق بمزيد الفضل من الله تعالى .

ينبىء عن ذلك الحديث الشريف في قوله صلى الله عليه وسلم " لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول من الخير ثم لم يجدوا الا أن يستهموا عليه لاستهموا " ولو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول لأتوهما ولو حبوا " وغير ذلك من الأحاديث التى تؤكد احترام المساواة داخل الاسلام ، ورفض النظرة الطبقية وبالتالى فقد فطن العقلاء لذلك اللون من الجمال الاسلامى ، فقادتهم ضمائرهم القلقة الى واحة الراحة والهدوء ، الا وهى الاسلام فأسلموا فيا رحمه له .

وحتى لايقر الاسلام شيئا من الطبقية البغيضة فقد جاء خطابه لكل المكلفين (في التكاليف الشرعية ، كما هو الحال في الأمور العقدية) خطابا عاما شاملا يحمله الينا قوله تعالى " فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ " (١) .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٥

ثم بربك قل لى " ألست معى فى أن الدين الاسلامى هو الوحيد من الأديان الذى عالج عبادة الصلاة معالجة متكاملة ؟ ثم ألست معى فى أن تلك المعالجة قد أهابت بالكثيرين فدخلوا فى دين الله مسلمين ، وكانوا قبل على الاسلام أعوانا ظالمين ؟ وأن تلك المثالية قد تصدت لجحافل الظلم وأسس الطغيان ، فنبهت القلوب والعقول ، وهيأت النفوس لجمال الاسلام وفداحة الأديان ، فانتقل المكلفون الى ساحة الاسلام يأملون فى رحابها الأمل فى الله والطمع فى رؤيته والتعلق الجميل بفضله واحسانه سبحانه وتعالى وتعالم لهذا .

- الزكـــاة :

ركن من أركان الدين ، وعماد بعد التوحيد قويم ، فيها الطهر وبها التطهر لقوله تعالى " خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ " (١) وفيها للمال النماء ، وللفقير الألفة والوفاء ، وللغنى الصبر والابتلاء ، وكل العقلاء يعملون على اخراجها فى وقتها استجابة لأوامر ربهم جل وعلا فتزكوا نفوسهم وتنمو أموالهم ، ولا يشعر بالحاجة فقيرهم .

وهى ليست ضريبة مفروضة ، تستعين الحكومة على جمعها بمن تستعين ولكنها زكاة واجبة متى بلغت من مال صاحبها الرشيد ، وصارت قدرة على اخراج الجديد فان نسبة منها تخرج على سبيل الزكاة ، تنمية للأموال ، وتطهيرا للنفوس وتأليفا للقلوب ، وتعميما للخير فى كل أرجاء المعمورة .

ثم انها تكبح جماح النفس الشحيحة ، الراغبة فى الاعتداء والسطو ، المندفعة الى ألوان الدمار والشر ، فتعود الزكاة عليها ، تقلل من عنفها ، وتمحو السئ من آثرها ، وتعمل على تنظيم داخلها ، فربما تقرب صاحبها الى الله راضية نفسه ،

(١) سورة التوبة الآية ١٠٣

قانعة غريزته بأن الزكاة ، أفضل من السرقة ، وأن قبول الصدقة عند الحاجة أولى من الاندفاع الى الطريق الخرب .

كما أنها تطبع المزكى بسمة الصالحين ، فيحاول استثمار ماله فى الدنيا إما عن طريق تشجيع صناعات قائمة ، أو استحداث أخرى تقوم ، أو احياء أرض موات أو استخراج ركاز الأرض ، وفى كل ذلك وأمثاله ، رأس مال يتحرك ، وأيد عاملة تقوم بواجبها ، وبيوت بالعمل تعز ، وانفس فى طاعة الله تدوم ، وأبدان على الخير تظل قويمة ، وفى ذلك محافظة على الأبدان ، وصيانة للأعراض ، وتقويم للنفوس والأموال ، ولا يكون ذلك كله الا بالزكاة .

ثم انها توحى للمزكى بالمفاضلة ، بين مال تأكله الزكاة لو بقى حبيس الحول وآخر ينمو متى خرج الى القرض الحسن والمشاركة الايجابية القائمة على استثمار رأس المال فى التجارة الدنيوية (كالتجارات المعروفة) أو الأخروية ، كالانفاق على أيتام وتزويج المساكين ، ومعاونة طلاب العلم الدينى ، وعمارة بيوت الله ، واحياء السنة وانشاء دور لابن السبيل ، واقامة الأسبلة بغية ارضاء رب العالمين ، بعيدا عن مظاهر الرياء والدعاية الكاذبة الممقوتة فى قوله تعالى " وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ " (١) .

ومثل ذلك الوقف الخيرى القائم على وجوه الخير جميعها ، والتى يستفيد بها المسلمون جميعا ، ولن يكون ذلك الا بالزكاة الدنيوية والأخروية معا ، التى يبتغى بهما وجه الله تعالى ، ولا توجد زكاة بهذا المعنى والغرض الا فى الاسلام .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٨٨

وقد جاءت آيات القرآن الكريم حاضة على الصدقة ، مؤكدة على الزكاة بكافة أنواعها ، وركزت على الخطاب الاستفهامى القائم على الترغيب فقال تعالى : "مَنْ ذَا الذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ " (١)

" إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ " (٢) .

الى غير ذلك من الآيات التى جاءت بهذا الأمر فعالجت أعتى الأزمات ، ولولاها لانهدمت بنية المجتمع من أساسها .

بيد أن المطالع للأديان يجد فوارق شتى ، بين الزكاة فى الاسلام وبين غيره من الأديان كلها على النحو التالى :

اليهودية :

عاشت اليهودية على أكتاف السؤال والمذلة بعد نبى الله موسى عليه السلام ورسم الحاخامات لأنفسهم صورا لاتطاول ، حتى مروا بمراحل التفضيل كأنها لم تكن ، واذا هم يعلنون للشعب الذى يخاطبونه أنهم أحباب الله وأبناؤه والقائمون على حفظ دينه ، وأن على الجميع أن يتولى كفالتهم ، فلا الزكاة تكفى ، ولا الصدقة بل ولا الهدايا أو الهبات ، وانما لابد أن يتنازل لهم الشعب عن أملاكه وإيراداته أو على أقل تقدير أن تكون مشاركتهم لأفراد الشعب فى الثروة ذات فعالية لا يحجبها أن تكون التركة كلها لهم ، أو نصفها ، بحكم أنهم المحافظون على شرع الله ، المدافعون عن الشعب غضب الرب ، وهم جميعا أحرص الناس على جمع المال والتعلق المستمر بتلابيب الدنيا .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٤٥
(٢) سورة التغابن الآية ١٧

وقد وصفهم الله جميعا بالحرص على الحياة أى حياة ، فقال تعالى :
" وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ " (١) .

كما أنهم لسوء طويتهم وانحدار اخلاقهم ، وتهافت أمانيهم يستبيحون الكذب على الشعب باسم الدين ، ويستبيحون الكذب على الله باسم الرحمة .

من هنا تعلقوا بالمال وضنوا به ، فلا زكاة للفقير ، ولا أمان له ، بل ولا أمانة فى الغالبية العظمى منهم ، ولعل هذا ما أشار اليه الحق جل وعلا فى قوله تعالى " وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ " (٢) .

بل تطور موقفهم الى حد الافتراء المطلق على الله فضلا عن استباحته فاشتروا الحياة الرخيصة بعهد الله تعالى اليهم وأكدوا ذلك بالأيمان المغلظة لديهم ، وقد نعتهم الله تعالى بما وصفوا به أنفسهم فقال تعالى " إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ " (٣)

---

(١) سورة البقرة الآية ٩٦
(٢) سورة آل عمران الآية ٧٥
(٣) سورة آل عمران الآيتان ٧٧/٧٨

وبالتالى فان الزكاة عندهم تحولت من صورة تكافل اجتماعى الى أبشع صورة للظلم والتكسب من مال الغير والربح الحرام باسم الدين وهو منهم براء ، وقد امتلأت اليهودية بذلك قديما وحديثا ، بحيث يحصل المطالع لها على ما يندى له الجبين وتقشعر منه الأبدان ، فأين هذه الزكاة منها فى الاسلام ؟

ثم ان الدافع لها يشعر بأن ضريبة تلاحقه ، لايمكنه تلافى خطرها ، ولا الابتعاد عن ضررها ، لأن فيها رضى الأحبار ، وبها تقع عليه بركاتهم ، وكذلك لاتمسه هبات الحاخامات الا اذا جعل ماله وما يملك تحت تصرفهم ، فتموت فيه معايير الخلق ، وتتهدم بداخله الصور الجميلة للدين ، ولايجد منه الا صورة ممسوخة وأفكارا هشة ،

وقد فطن اليهود الى جمال الاسلام فى زكاته ، فراحوا يعملون على تقليدها تحت اسم الاستيطان ، وأنها تجمع لتوطين بقية أفراد الشعب اليهودى فى أرض الموعد ، أرض النبى يوشع ، ولكن الفرق واسع ، والدعوى باطلة والله غالب على أمره ، فليس من العدل أن يستباح مال انسان ما ، ليتمتع به انسان لم يكدح فيه ولم يعرق ، فضلا عن أنه قادر على القيام بنفس الأعباء ، وبكل الامكانيات ولم يفعل والمحزن حقا أنه فى ظل القرن العشرين ، ماتزال هذه الأفكار تسيطر على الغالبية العظمى من أصحاب اليهودية والمسيحية والبوذية على السواء ،

أما فى الاسلام ، فان الأمر يختلف كل شىء فيه ، فالزكاة مفروضة فى أنواع محددة وبشروط محددة ، ولأشخاص محددين ، ثم هى بعد ذلك كله لا جبر فيها لسلطان يمليه أحد الا الله تعالى ، فهو وحده الذى يراقبه المسلم ويعمل جاهدا على ارضائه ، أما مصارف الزكاة فقد حددها الله تعالى فى القرآن الكريم بقوله تعالى :

" وَإِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١) .

فهل رأيت مثالية أعظم من مثالية الاسلام فى الصلاة والزكاة ؟ اعتقد أنك ستلوح معى لايوجد ذلك الا فى الاسلام الذى بعث المثالية ورفض الطبقيـة ونادى بالخير كله للانسانية ، وكان ذلك كله من الأسباب القوية لجذب العقلاء الـــى الاسلام ، وبالتالى كانوا سببا من أسباب انتشاره ، فهل رأيت لماذا أنتشــر الاســلام ؟ .

المســيحية :

لايكاد الباحث فى المسيحية يجد الزكاة بوصفها الجميل ، ولا بجمالهــا الخلاب كما فى الاسلام ، بل ربما لايجدها أصلا ، غير أنه إن بحث فى ثنايــا المصادر ربما وقف عليها منزوية فى حياة ، يجمعها تجار العواطف ، ويوزعونهــا بمعرفتهم الخاصة كأنهم أوصياء على صاحبها ، أو هو قاصر عن ادراك وجوه انفاقها ثم هى غير خاضعة (عندهم) لنسبة معينة ثابتة (كما فى الاسلام) وانما تتســع حسب كرم كل واحد ، وعلاقة جامعها به ، ايجابا أو سلبا .

وبالتالى فهى غير معروفة النصيب ، غير مقدرة القيمة ، لايعرف صاحبهــا مقدارها ، ثم هو لايخرجها بارادة ضميره ، ونبض ايمانه ، وحساسية انفعـالاتــه بعقيدته ، انما يخرجها مرغما ، وتؤخذ منه على كره ، وفوق ذلك فليس لها حــد معين ، ولاجهة انفاق ترد اليها أو تبقى عندها لوقتها .

---

(١) سورة التوبة الآيـــة ٦٠

فهناك زكاة أسبوعية تدفع عند الاعتراف كل يوم أحد (١) ويختلفون في تحديدها من ناحية القيمة ، فمنهم من يحددها بخمسين قرشا عن كل فرد في الأسبوع ، وبخاصة اذا كان الدافع لها حديث عهد بالبلدة التى حل فيها وحصل على مساهمات من الكنيسة التى يتبعها ، ومنهم من يجعلها خمسة وعشرين قرشا عن كل صاحب دخل فى الأسرة دون غيره ، شريطة أن يتولى الدعوة اليها بين جموع الشعب الذى يعيش فيه ، ومنهم من يجعلها متفاوتة حسب دخل الشعب وامكانياته ، وهذا التفاوت يجعلها غير محددة فى كل شئ .

ثم تأتى مرحلة الانفاق ، فلا نصوص تحكمها ، ولا قواعد مضبوطة تصونها ، بل قد يقرر الآباء وجها من وجوه الانفاق ولا يعرف أفراد الشعب عنه شيئا ، أو بمعنى آخر فالراعى لكنيسة هو وحده المسئول عن اتخاذ قرار الانفاق بغض النظر عن سلامة ذلك الانفاق أو عدمه ، فقد يكون القرار انشاء عدد جديد من الكنائس ولو فى بلاد غير التى جمعت منها الأموال ، كالحال فى كنائس البلاد الفقيرة فى أفريقيا ، وقد يكون فى التوسع لاحتواء أكبر عدد من المحلات التجارية فى مدينة ما وتقع تلك المحلات على مداخل المدينة أو مخارجها (٢) .

وليس من حق أصحابها — الأموال المدفوعة — أن يسألوا عنها ، أو يعرفوا لها مصرفا ، ايمانا بالأثر السائر (خذ وأنت أعمى) — وهكذا تَعَلّمْ — ولاتناقش

---

(١) تختلف بعض الكنائس فى جمعها يوم الأحد ، فمنهم من يجعلها على عدد الرؤوس فى المنزل الواحد ، ومنهم من يجعلها على أصحاب الدخل فى الأسرة الواحدة ، ومنهم من يجعلها فى الأحد الأول من الشهر ، أو فى الأخير منه ، أو كل يوم أحد حسب وجوده فى الشهر .

(٢) كالحال فى مدينة قليوب ، ومدينة شبرا الخيمة ، وحى أبى زعبل وقرية أوليلة الدقهلية ، وغيرها من مدن مصر وقراها .

ما يقوله الواعظ فانه الوحيد العارف لكلام الرب ، وغيرها. وبالتالى يشعر الفرد من داخله بالحسرة ، ويستولى على جوانحه هاجس مخيف ، يترجم الى عبارة مؤداها (أأتعب ويرتاح غيرى ، واشقى ويسعد ، وأجمع وهو ينفق ، ثم بعد ذلك لا اسمع الا لعنات الشعب وغضب الرب (١) .

بل ان الفرد منهم اذا فارق الحياة ، لايتاح لجسده أن يدخل قبره الا بعد رحلة طويلة من الألام المادية التى جاءت بسبب التكاثف القوى لصكوك الغفران والتكثيف العنيف من قبل واعظيهم لهذا اللون من الابتزاز الذى يدخل عليهم باسم الدين ، والذى لا ينتهى عادة الا بمال وفير يتقاضاه الشماس أو من فوقه كتكملة لزكاة منقوصة لم يتح له أن يقوم بها فى الدنيا ، وعلى زويه أن يجمعوها له ليعتق من غضب الرب ، ثم أين تنفق ؟

والجواب : نفس الجواب ، لاتسأل. هكذا تعلم ولن يجديه سؤاله كما لن تشف غليله الاجابة ، وقد تركزت الطبقية بكل صورها فطبقة تكدح والأخرى تربح ، طبقة تأمر وتدعى أنها تعبد ، وأخرى تساق قهرا ، وتعيش التعاسة فى شتى صورها فأين ذلك من موقف الاسلام بالنسبة للزكاة ؟ .

---

(١) راجع موقف البروتستانت من صكوك الغفران ، ولماذا انفصل لوثروزونجلى وكليفن عن الكنيسة العالمية وكونوا البرتستانت .

ب — رفض الاسلام للطبقية فى العلم :

نجحت ديانات عديدة ، وضعية كانت أو غلبت عليها الوضعية — فى فرض حصار فكرى على أتباعها ، فحرمت عليهم التأمل فى غيرها ، وفرضت من القيود ما ظن القائمون عليها أنها الوسيلة الفعالة ، واتخذت لذلك سبلا شتى واصطنعت طرائق قددا ، حيث جعلت العلم قاصرا على :

١ — نوع معين من بنى البشر — وسموا بالأحبار ، أو الرهبان ، كما سموا بالقسس ، ثم ان هذا النوع من البشر ، جعلت فيه صفات عديدة ، تحمل الأمل والألم معا ، وتظهر الفوارق العديدة ، حيث تهضم حقوق المرأة فيها جميعا .

٢ — نوع معين من العلم ، وهو العلم الذى لايعطى لصاحبه الفرصة الضئيلة للتفكير ، بل يحوله من طاقة عاقلة فياضة الى طاقة قادرة على تلقى الأفكار التى يصوغها الغير ، دون أدنى مراجعة لها ، أو مراعاة لأقل حد تفرضه وكأنه جهاز استقبال تحفظ فيه المعلومات أو بنك للمعلومات كما يقولون .

ثم ان هذا النوع المعين من العلم المفروض ، لايشفى غليلا ، ولا يرد شهوة لجائع ، كما لايطفىء ظمأ لهيمان ، انه نوع من العلم الذى لا أب له ولا أصل ولا أم ، علم نسجته أوهام الحالمين ، وصورته ألباب مفرغة من كل قيم قويمة ومعنى نبيل ، فتراهم يقولون عن أنفسهم أنهم معبؤون بالروح القدس ، وان كلام [illegible] لا يحاول ابن الانسان أن يفهمه ، أو كلام الله لاينزل الى الأرض لأن صاحبه فى العلا فهو أيضا عال .

وتخفت الأيام بهذه الفكرة فراحت تخبو حينا وتظهر أحايين ، وما يزال أمرها فى صراع دائم رغم أن الاسلام قد حكم عليها بالخسارة وحكم فيها بالبطلان ، لذا لم توجد فى الاسلام طبقية فى العلم — كما هو الحال مع المسيحية مثلا — أو اليهودية ، أو هارى كريشنا أو غيرها

٣ — مكان معين من الأمكنة — بحيث لا يلقى العلم الا فيها ، ولا يتلقى الا من خلالها ، وكأن العلم قاصر — عندهم — على هذه الأمكنة بالذات وحجتهم أن العلم عبادة ، ولا يلقى أو يتلقى الا فى أماكن العبادة ، وأماكنها عندهم محصورة فى الصوامع والمعابد والكنائس والأديرة ، وان كانوا قد أدخلوا عليها بعض التعديلات فيما بعد.(١)

---

(١) توسعوا فيما بعد بالنسبة لأماكن تلقى العلم ، فاستحدثوا نظام الكليات والمدارس اللاهوتية المتخصصة فى مسائل الدين فقط كالكليات الاكليريكية ومدارس الفاتيكان ، والفرنسيسكان ، وكذلك المعاهد اللاهوتية العالمية ، وقد خصصوا لكل منها نوعا من التعلم الدينى ، كما اشترطوا فى طلابها عدة شروط متميزة وقد فطنوا لذلك الأمر بعد أن فشلت فكرتهم القديمة عن ملاحقة سبل التطور السريعة والنمو البشرى ، والرغبة الدفينة فى غزو بلاد عديدة بديانتهم ، ولذا نفضوا عن أفكارهم الالتزام بأن أماكن العبادة هى فقط أماكن تلقى العلم ، وطوروا الفكرة من أماكن تلقى العلم الى أماكن العبادة ، وفى هذا التطور تحويل تام من التمسك الحرفى بالنص الذى ساد هم قرونا متطاولة ، وحقق لهم الخسران المستمر الى المحاولات الجادة للتعامل مع الفكر الحر ، لعلهم يعيدون الى ساحتهم المفرغة ما فقدوه فى تاريخ سلطانهم الاضطهادى الطويل .

وقد عمق فكرة رفض الأمكنة لديهم القس الشهير زونجلى ، ومعه كليفن ، ورغم أنهما من البروتستانت الا أن أفكارهما قد فرضت على الكنائس الثلاث كسلوك عملى وان لم يعز اليهما مباشرة ، نظرا لرفض الكاثوليك والارثوذكس قيام طائفة البروتستانت اكثر طوائفهم اعتدالا ، وكان ذلك كله بمثابة طبقية مفروضة فى تلقى العلم أو تلقينه ، وقد فرضها رجال الدين باسمه ، ورفضها الشعب لقسوتها .

أما الاسلام فقد أنشأ للعلم واحة فيحاء ، صير فيها المعلم والمتعلم على قدر سواء في طلب العلم ، وحرض الناس جميعا على تلقينه وتلقيه من المهد الى اللحد ، وشحذ الأذهان اليه لتكون قديرة على قبوله ، لافرق في ذلك بين أن يكون — المعلم أو طالب العلم — ذكرا أو انثى ، مادام في حشمة ووقار ، ورغبة في الحصول على الفضل من رب العالمين .

ولم يقف الاسلام عند حد تلقى العلم أو تلقينه بل تحدث عن الأدوات الخاصة به ، وكذلك الوسائل الموصلة اليه وذكاها ، فنرى القرآن الكريم ، يحدثنا عن سورة القلم ، بل ويقسم به ، وعلى أى معنى كان القلم ، فانه لفظ عام ، كما يقال على القلم الملائكى ، يقال كذلك على القلم البشرى والجنى ، فقال تعالى " نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ " (١) ويهىء الله تعالى الانسان لأسباب العلم ويحثه عليها ويبين أنها الوسيلة لتحصيل العلوم والمعارف وكسب الفنون وغيرها ، مما يغذى العقل البشرى أو يفيده بالمعارف فقال تعالى "إقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الانْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٢)

وبالرغم من أنها أول آية نزلت من القرآن الكريم ، على أصح الأقوال (٣) الا أنها جاءت لتخاطب المكلفين أينما كانوا ، وعلى أى جانب ، ومن أى جنس وتحت أى نوع ، مادامو قادرين على القراءة أو سماعها ، أو تعليمها ، وحضهم على الاندفاع اليها ، باعتبارها سلاحا لا يصدأ ، وطريقا لكسب العلم لاينهدم ، والجميع في ذلك سواء الذكر والأنثى .

---

(١) سورة القلم الآية ١
(٢) سورة العلق الآيات ١ — ٥ .
(٣) راجع مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ / محمد عبدالعظيم الزرقانى جـ١ ص ٩٢ ومابعدها .

بيد أن الناظر لآيات الذكر الحكيم والأحاديث النبوية المطهرة يواجه أبوابا شتى ، وآيات عديدة كلها تدعو للعلم وتحث عليه دون أن تقصره على نوع معين أو جنس معين أو مكان بذاته ، ففي الأثر " طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة " بل أن بعض الآيات القرآنية الكريمة ، وضعت العلم في ناحية وعدم العلم في ناحية أخرى ، ثم قايست بينهما جميعا ، وقد زكت العلم ، وامتدحت العلماء فقال تعالى " قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ " (١) .

وتقرر بين العقلاء جميعا أن منزلة العلم اسمى من غيره وأرجح ، الا من لا ثقة بعقله ، ولا أمان لفكره ، لذا أفاضت آيات الذكر الحكيم ، في بيان منزلة العلم والعلماء ، فقال تعالى " يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ " (٢) ، وقد زكى الله أهل العلم — القائم على شرع الله ، وبغرض القيام على محبته تعالى طلبا لرضوانه — وجعلهم بين الناس كالنور في الظلمة ، وأكد على أنهم أهل للاستئناس بهم في الرأى والتماس المعرفة منهم عند الطلب ، لا فرق في ذلك بين الذكر والأنثى ، فقال تعالى " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ " (٣)

ورغم أن القرآن الكريم تحدث عن العلم كثيرا ، فاننا نجد السنة النبوية المطهرة قد دعت اليه ، ونوهت به ، وحببت اليه فقال عليه الصلاة والسلام " من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع " (٤) بل ان السنة المطهرة هيأت طريق العلم بصورة جعلت العقلاء يقبلون عليه ، وذلك حين جعلت طرق

(١) سورة الزمر الآية ٩
(٢) سورة المجادلة الآية ١١
(٣) سورة النحل الآية ٤٣
(٤) رياض الصالحين — باب العلم ص ٥٤١ رواه الترمزى وقال حديث حسن .

العلم القائم على شرع الله تعالى فى الدنيا هى نفس الطرق الموصلة الى جنة الله تعالى فى الآخرة ، فقال صلى الله عليه وسلم " من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا الى الجنة " (١) .

من ثم صار طلب العلم فى الاسلام قاعدة أصولية ، تعلم الذكر والأنثى جميعا كما تحمل فى ثناياها الطفل والكهل ، والأبيض والأحمر والأسود ، وكل من قدر على طلب العلم أو تعليمه لغيره ، وصارت تلك القاعدة صورة من صور المثالية الاسلامية ، بحيث تعتبر تكليفا بقدر ما يطيق المرء المسلم ، وكذلك يثاب عليه ولعل الاشارة الواضحة فى الحديث النبوى الشريف " خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء " (٢) لهى أوضح دليل على مثالية الاسلام فى العلم ورفضه للطبقية فيه .

وعلى حين نجد الدين والعقل أعداء لدى الديانات الأخرى ، وكذلك العلم والدين ، نرى الاسلام يجعل تلك النظرة السطحية تسقط والى الأبد ، حين يؤكد على أن الدين الحق لا يناقض العقل السليم ، وكذلك العقل الناضج لا يعاند الدين الصواب ، بل ان الدين والعلم أخوان يعملان على تدعيم معرفة الانسان لربه ، وايمانه به ، من ثم فقد فشلت ديانات عديدة من أول وهلة فى اقناع اتباعها بالاستمرار تحت كهنوتها ، الا الاسلام فقد ازداد اتباعه يوما بعد يوم ، ومايزالون يدافعون عنه بالحجة والمنطق السليم ، والبرهان الذى لا ينكره الا مكابر ، وماذلك الا لأن قواعد الاسلام وأركانه ، وتعاليمه وتكاليفه ، مثالية لا مكان فيها للطبقية ولا فرصة فيها لراغبى الحجر على أفكار الآخرين ، فحق للمسلمين أن يتمسكوا بالاسلام ، وحق على غيرهم أن يدخل الى الاسلام ليتمتع بعذب رحيقه ، وينعم بواحته الفيحاء ، لأنه دين العالمين وعقيدة الخلق أجمعين .

(١) المرجع السابق باب العلم رواه مسلم .

جـ — رفض الطبقية فى تطبيق الحدود :

تعثرت البشرية فى خطاها طويلا ، وكلما نال منها الجهد ، حطت الرحال ثم عاودت الترحال ، وكم من أمة ذاقت الويل لمجرد أنها تخطت حدود الله تعالى ، التى أمر المكلفين بالوقوف عندها وعدم الوقوع فيها ، وكان تخطيها بالتفكير فى معصية الله تعالى ، يجلب اليها السوء ، ويدفع بنيها الى الضلال وكانت النهاية فى كل مرة ، ومع كل أمة ماحكاه القرآن الكريم فى قوله تعالى : " فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " (١)

وكان القائمون على أمر تلك الأمم — من غير الرسل والأنبياء — يلجأون الى المحاباة أكثر من اجراء تنفيذ العقوبة ، حتى تأصلت تلك العادات الذميمة فيهم ونشرت سمومها بينهم ، وشب الرضع عليها ، كما مات الكهل طمعا فيها واطردت تلك المحاباة حتى وصلت الى حدود الله تعالى ، فكان الشريف فيهم ، بنسبة أو ماله اذا فعل الفاحشة ، اعتبروه عملا بطوليا ، وأقاموا له التقديس وأفانين الاحترام ، واذا اقترفها منهم ضعيف ، ساموه العذاب ، وساقوه الى الألم المهين ، وربما حرموه من ماله أو ذويه .

ولم تجد النصيحة الى قلوبهم طريقا ، كما لم تتمكن العدالة من نفوسهم وقد قتلوا الفضيلة فى محرابها ، وذبحوا المساواة فى الحقوق والواجبات بأيد أثمة لئيمة ، وكان عقاب الله اليهم ، يتمثل فى هلاك عاجل ، أو خراب مستمر وجوع ودمار ودماء ، حتى حذر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أصحابه ،

---

(١) سورة الأنعام الآية ٤٥

والمسلمين جميعا من بعده من عاقبة هذه الفوضى المدمرة ، فقال صلى الله عليه وسلم " انما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد " (١)

وجاء عقاب الله اليهم يحمل ألوانا شتى من الحرمان ، ويزف صنوفا عديدة من العذاب ، فقص القرآن الكريم علينا فى بيان عاقبة الظالمين ، قوله تعالى : " فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون " (٢) وبالتالى فقد أستحقوا بفعلهم الذميم العذاب الأليم وما ذلك الا لأنهم تجاوزا الحد ، ومالوا الى الصد ، وأستنكفوا عن عبادة الاله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له صاحبة ولا ولد ، جل وعلا بل ولم يكن له كفوا أحد .

ومن الغريب المألوف أن يعمل أصحاب الأديان الحالية - الوضعية ومن يدعون نسبة دينهم الى السماء كاليهودية ، ومسيحية بولس - على تنظيم فكرة الطبقية فى تطبيق الحدود ، وأن يبذلوا قصارى ما يملكون لهذا الغرض ، فالحاخامات لاحرمة محددة لشئ يعرف لديهم ، بل انه لا حرام عندهم أصلا الا اذا كان التحريم هم مصدره ، أو كان الحرام أن يحرمهم من متعهم والملذات فكل الناس بالنسبة لهم خدم ، وهم لكل الناس أسياد ، الأموال والأنفس والأعراض والعباد والبلاد والأوطان ، كل هذه وتلك للحاخامات حرام مباح عليهم ، وكلأمتاح لهم ، والحرام أن يحجبهم أفراد الشعب عن هذه الأمور التى يتعلقون بها ، أو بعضها ، ولها يسجدون ، وكذلك القسس نفس

(١) حديث نبوى شريف وقصته مشهورة .
(٢) سورة العنكبوت الآية ٤٠ .

فكم من جريمة باسم الدين ارتكبت ، ولم يتح لها أن يعاقب فاعلها ، لحصانة الدين له ، بل ان كل جرم يقعون فيه ، يفسر على أنه رغبة الرب ، وأنهم مجرد صورة له ، يتساوى فى ذلك أن يكون الجرم مالا فى شكل صكوك الغفران ، أو فى شكل العشاء الربانى ، أو صورة القربان أو غيرها من الطقوس والمراسيم كالتعميد والعشاء الأخير وغيرها .

والمؤسف حقا أن بقية أفراد الشعب لديهم اذا وقعوا فى الخطيئة يمكن للآب أن يغفرها لأى واحد منهم دون أن يبقى عليه أى أثر لها ، ولست أدرى كيف تنطلى تلك الخدعة على العقل المميز الذى يدرك لأول وهلة أن غافر الذنوب هو الله وحده ، ولا واسطة بينه وبين أحد من خلقه ، ويكفى أن الله تعالى قال عن نفسه " غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا اله الا هو اليه المصير " (١) وقال تعالى : " قُلْ يَاعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَاتَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَاتُنْصَرُونَ " (٢) .

من ثم فان دعاة الأديان قد خدعوا أتباعهم ، وأوقعوا بهم فى الوهم ، وسلكوا بهم مسالك التغرير التى نهى عنها الله تعالى وحرمها الاسلام الحنيف وقد تأكدت الخدعة عدة مرات ، بل أنهم فى خداع دائم لاتباعهم ، وسوف يقعون جميعا فى مرحلة عذاب طويلة لا نعيم لهم بعدها أبدا وذلك لقوله جل وعلا : " وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ، إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ

---

(١) سورة غافر الآية ٣
(٢) سورة الزمر الآيتان ٥٣ ، ٥٤

بِهِمُ الْأَسْبَابُ ، وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ " (١)

وقد نشطت تلك الطبقية لديهم واتسعت ، ولم تعد تطبق الحدود الا على الضعفاء وأفراد الشعب المحرومين ، مما حدا ببعض العقلاء الى التفكير مرة أخرى فى سلطة رجال دينهم ، ومدى قدرتهم على غفران الذنوب ، فتأكد لهم زيفها ، وكذب دعواهم ، من هنا انطلقوا بعيدا عن دياناتهم التى ورثوها الى دين الاسلام الذى أزاح عن كواهلهم الآلام الشديدة ، والأحزان العديدة ، واعتنقوه لأنهم رأوا فيه صورة مثلى للعدل ، والمساواة وتحقيق الأمن بكافة ألوانه لكل سكان العالم فآمنوا .

موقف الاسلام :

أما الاسلام ، فقد رفض الطبقية فى الحدود ـ كما رفضها فى سائر التكاليف الشرعية والاعتقادية على السواء ـ وقرر أن الناس جميعا أمام حدود الله سواء ، كما أنهم فى عبادته تعالى سواء ، وذلك مبين فى قوله صلى الله عليه وسلم " الناس سواسية كأسنان المشط ، ألا لافضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى والعمل الصالح ، ثم تلا قوله تعالى " ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير " (٢) .

ولم يقف الاسلام عند حد التشريع بل انه انتهى الى التطبيق العملى ـ لأن كل فكرة لاتطبق أو لا تقبل التطبيق هى فكرة فاشلة ـ وجاء ذلك فى مواقف عديدة ، بعضها ناشىء عن يقظة ضمير وسلامة دين ـ وهو ما يسمى بالاعتراف أو الأقرار ـ كما حدث لماعز ، والغامدية ، أو كان ناشئا عن وقوع المخطىء فى

---

(١) سورة البقرة الآيات من ١٩٥ ، ١٩٧
(٢) سورة الحجرات الآيـة ١٣

الجريمة ، وتمكن السلطة التنفيذية منه ، وهاك الأمثلة :

١ — المرأة المخزوميـــة :

امرأة مخزومية ، استغل الشيطان ضعفها ، وتسلط عليها ، ولم تحـــاول مقاومته ، ولم يكن الايمان قد تعمق فى قلبها ، وامتدت يداها الى مال غيرهـــا فأخذته سارقة اياه ، وتم ضبطها متلبسة ، ولم تجد فرصة للانكار ، بل اعترفـــت وهى من أسرة ذات قدر فى المجتمع المخذوى كله .

وحدثت المفاجآت المتوقعة ، حزن أغلب المخزوميين ، اذ كيف تحد المرأة بقطع يدها ودارت بهم الظنون ، وهم أهل نسب وجاه وسلطة قبل الاسلام ، ماذا يقول الناس عنهم ، واتخذوا لذلك طرقا شتى علها تباعد بين السارقة واقامـــة الحد عليها . ولم يجدوا بدا من ارسال أحدهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يخاطبه فى شأن ترك المرأة المخزومية دون اقامة الحد عليها ، ووقـــع أختيارهم على حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو سيدنا أسامة بن زيـــد لما له فى نفس النبى صلى الله عليه وسلم من مكانة وراح أسامة يخاطب الرسول فيها وبذل أسامة كل وسيلة لتفادى المرأة الحد .

هنا أكد الرسول الكريم على رفض الطبقية فى اقامة الحد بين المسلمين والـى أن يرث الله الأرض ؤ من عليها ، مهما كان سلطان المخطىء ، وقال صلى اللـه عليه وسلم مؤكدا ، وموضحا " أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة ؟ انمـــا أهلك من كان قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهـــم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدهـــا "

ولم تجد توسلات أسامة مكانا ، فهدأ الجميع واطمأنوا لحكم الله ، وتم قطـــع اليد من المرأة السارقة حدا ، وتقبل الجميع حكم الله بنفس راضية طالما قـــد

أيقنوا ان الرسول مثلهم " أنه لن يترك أحدا من اقامة الحد متى بلغت جريمته السلطة التنفيذية ، واعترف بها أو شهد عليه من تصح شهادتهم لاقامة الحد عليه ، وأغلق الباب تماما أمام الجميع فلم تمتد يد لسرقة ، ولم يتمكن الشيطان من الانتصار على ضعيف ، طيلة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بين أصحابه .

٢ — عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب :

لما علم عمر بن الخطاب — وهو أمير المؤمنين — أن ابنه عبد الرحمن قد شرب خمرا بأرض مصر وأن عمرو بن العاص أقام عليه حد الخمر لكن في منزل عمرو وليس في الميدان العام الذي تقرر أن تقام فيه الحدود ، ودخل في نفس عمر بن الخطاب أن عمرو ربما يكون قد أقام عليه الحد بصورة شكلية فقط ، فاستشاط غضبا ، واتخذ اجراءات عنيفة فكتب الى عمرو بن العاص ، يؤنبه ويطالبه أن يرسل عبد الرحمن اليه نهارا ، ولما وصل عبد الرحمن الى أبيه بادره أبوه ، وأقام عليه الحد ولم تأخذه غريزة الأبوة التي انهزمت أمام العدل الاسلامي ، ولم يخنه تيار السلطان ، ورغم أنه أمير المؤمنين ، وكان يستطيع أن يتلمس لابنه المخارج ، وأن يجد له ألف عذر ، وأن يبحث لابنه عن صورة ترفع قدره .

وأقام عمر الحد على ابنه نهارا جهارا وفي المكان العام ، لا رغبة في التشفي وانما حبا في العدل الاسلامي الذي بثه فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاعة لأمر الله تعالى ، واستجابة لتوجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة (١) وقد يختلف الأمر ، لكن لم يذكر التاريخ كله أن دولة المسلمين

---

(١) يختلف الناس في اقامة الحد الذي تم تنفيذه في عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب على أقوال منها : أ — أن عمر أقام الحد على ابنه ومات عبد الرحمن من الجلد بعد أن أتم أبوه الجلد كاملا . ب — أن عمر أقام الحد على ابنه ومات عبد الرحمن من الجلد ولم يتركه أبوه حتى استوفى بقيته وهو ميت ، ونحن ننكر هذه الرواية لأنها تتنافى مع سماحة الاسلام لأن الحد متعلق في الجلد بالحي ، أما اذا مات فلم تعد هناك حاجة لاتمامه عليه ولعلها من وضع القصاص . جـ — أن عمر أقام الحد ومات عبد الرحمن بعده بشهور لكن بسبب الجلد المتكرر .

حدث فيها أمر واحد ، لم تظهر فيه مثالية الاسلام أو حادثة واحدة ظهرت فيها الطبقية ، ولو بشكل يسير .

٣ ـ المصرى وأبن العاص :

أجل ، طبق الاسلام بصورة مثلى فى عباداته فى حدوده ، ويتكرر الموقف العنيف اليوم فيأتى عمرو بن العاص ، وقد فتح الله على المسلمين بلاد مصر ، وتولى عمرو ولاية مصر وحدث أن وجد خلاف بين مصرى قبطى وبين أبن عمرو بن العاص ويتولى ابن الأمير كبره ويضرب المصرى قائلا له ، أنا ابن الأكرمين .

ويبلغ الخبر الى الخليفة العادل عمر بن الخطاب ، فيرسل فى طلب عمرو وأبنه والمصرى وفى مكان عام يستمع لشكوى القبطى ، وينصت اليه ، ثم لا يجد عمرو وابنه فرصة للدفاع نظرا لثبوت الواقعة عليهما ، فلا يجد ابن الخطاب الا أن يعطى المصرى السوط ، ويطلب من عمرو وأبنه الامتثال حتى يتم للقبطى حقه ، وقال عمر بن الخطاب للمصرى ، أضرب ابن الأكرمين ، وتمتع المصرى بحصانة الاسلام ونعم بكفالته وشعر الجميع أن الاسلام يرفض كافة صور الطبقية ، فهموا جميعا اليه وكان ذلك من أسباب انتشار الاسلام وتعمقه فى قلوب المسلمين .

٤ ـ سلمان الفارسى :

نعم سلمان بصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذات مرة حاول أعرابى الاساءة لسلمان ، وأن يذكره بنسبه الفارسى ، ليعلو بنسبه العربى عليه ويلغ الرسول صلى الله عليه وسلم الخبر ، فأكد صلى الله عليه وسلم على رفض تلك العصبية البغيضة ، والطبقية الهزيلة ، ونسب سلمان لأشرف نسب ألا وهو نسب الاسلام " فقال صلى الله عليه وسلم :

" سلمان منا أهـــل البيت " (١) فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم اليـــه وذلك موقف اسلامى مثالى ، ما بعده مثالية ، والأمثلة على ذلك تفوق الحصــر وكلها كانت من أسباب انتشار الاسلام وانحسار غيره ، وقد كتب الله للاســـلام البقاء والاستمرار الى يوم الدين .

وبعـــــــد ..

فلعلك عزيزى القارئ الكريم ، قد واصلت الرحلة معنا فى الجزء الأول وها نحن نطمع أن نتزود معا ، وأن تصاحبنا الرحلة فى الجزء الثانى ان شاء الله تعالى ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

---

(١) جمع الجوامع ـ الجامع الكبير جـ١ ص ٥٤٦ أخرجه ابن سعد ، والحســن بن سفيان ، والطبرانى ، والحاكم عن عمرو بن عوف .

أهم المصادر

أولا : القرآن الكريم وعلومه :

الكتاب	المؤلف
١ ـ القرآن الكريم	
٢ ـ تفسير القرآن الكريم	الشيخ محمد رشيد رضا .
٣ ـ تفسير الجلالين	
٤ ـ روح المعانى	الامام الألوسى .
٥ ـ تفسير جزء عم	الامام الشيخ محمد عبده .
٦ ـ الاساس فى التفسير	الاستاذ / سعيد حوى .
٧ ـ تفسير فاتحة الكتاب	الامام الشيخ محمد عبده .
٨ ـ الدر المنثور فى التفسير بالمأثور .	الامام السيوطى .
٩ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل .	الامام البيضاوى .
١٠ ـ مفاتيح الغيب	الامام الرازى ..
١١ ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس	
١٢ ـ مفردات القرآن الكريم	الراغب الأصفهانى .
١٣ ـ حاشية الجمل	

١٤ ـ تفسير سورة البقرة	الدكتورين / احمد السيد الكومى
١٥ ـ تفسير سورة الأنعام	و محمد سيد طنطاوى
١٦ ـ تفسير القرآن العظيم	الامام ابن كثير
١٧ ـ ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم	الامام / أبو السعود .
١٨ ـ صفوة التفاسير	الشيخ / محمد على الصابونى
١٩ ـ تفسير القرآن الجليل المسمى لباب التأويل فى معانى التنزيل	الامام / الخازن
٢٠ ـ التفسير الوسيط	لجنة العلماء مجمع البحوث الاسلامية
٢١ ـ تفسير الطبرى	
٢٢ ـ مناهل العرفان فى علوم القرآن	الشيخ / محمد على الزرقانى .
٢٣ ـ تفسير سورة الحجر	الدكتور / محمد البهى مكتبة وهبة

ثانيا : السنة المطهرة وعلومها :

٢٤ ـ فيض القدير

٢٥ ـ مسند الامام أحمد

٢٦ ـ الأربعين النووية بشرح النبراوى

٢٧ - صحيح مسلم

٢٨ - صحيح البخارى

٢٩ - جامع الأحاديث

٣٠ - الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية — الشيخ / محمد المدنى

٣١ - كشف الخفا ومزيل الالباس

٣٢ - المقدمة لابن ماجة

٣٣ - رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين

٣٤ - سنن الترمزى .

٣٥ - الترغيب والترهيب للمنذرى .

٣٦ - جمع الجوامع

٣٧ - المقدمة للدارمى

ثالثا : المعاجم والمجلات والرسائل الجامعية :

٣٨ - أساس البلاغة .

٣٩ - مختار الصحاح

٤٠ - التعريفات

٤١ - جريدة الأخبار المصرية

٤٢ - تفسير سورة النحل — دكتوراه بكلية أصول الدين القاهرة دكتور / محمد متولى أدريس

رابعا : مراجع عامة :

مرتبة حسب حروف الهجاء بعد التجريد من أل وبالترتيب العلمي الدقيق .

٤٣ - حسب الله - أ.د /على — أصول التشريع الاسلامى - دار المعارف ......

٤٤ - حسان - دكتور / حامد — مواجهة الفكر المتطرف فى الاسلام مطبعة الجبلاوى ..

٤٥ - الحديدى - أ.د /محمد أبو النور . — عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة اليهم - مطبعة الأمانة

٤٦ - زيادة - أ.د / محمود — العرب وظهور الاسلام .

٤٧ - سابق - أ. الشيخ /سيد — دعوة الاسلام - دار الكتاب العربى ببيروت .

٤٨ - الشال - أ.د / يوسف عبدالهادى . — الاسلام وبناء المجتمع الفاضل طبعة مجمع البحوث الاسلامية

٤٩ - صدقى - أ / عبدالرحمن — الشرق والاسلام فى أدب جوته كتاب الهلال

٥٠ - عبدالخالق - د /أحمد — الاسلام والفكر المنحرف دار الهدى للطباعة

٥١ - كنون - أ / عبدالله — الرد القرآنى على كتيب هل يمكن الاعتقاد بالقرآن - رابطة العالم الاسلامى .

٥٢ – محمد – أ / أحمد فهمى	لاميـــة البوصيرى – مطبعة حجازى

٥٣ – المالكى – الشيخ / محمد ابن علوى	المنهل اللطيف فى أصول الحديث الشريف – مطابع سحر بجدة

٥٤ – المطيعى – الشيخ / محمد بخيـــت .	فى نظام الوقف – المطبعة السلفية

٥٥ – محمود – د / عبدالحليم	الاسلام والايمـــان

٥٦ – النجار – الشيخ/عبدالوهاب	قصص الأنبياء – دار التراث ...

٥٧ – النجدى – الشيخ / سليمان بن عبدالوهاب .	الصواعق الالهية فى الرد على الدعوة الوهابية – ط استانبول ..

٥٨ – وافى – أ.د / علـــى عبدالواحـــد ...	الحريـــة فى الاســـلام

الفهـــــرس

رقم الصفحة	الموضـــــــوع
٢٣	سـيدنا محمد صلى الله عليـه وسـلم
٢٦	موقف غير المسـلمين فى الآخـرة
٢٧	الفصل الثالث : تعريف القرآن الكريم للاسلام .
٣١	الفصل الرابع : تعريف السنة المطهرة للاسلام
٣٥	زعم مرفوض ورأى غيـر سـديـد
٥٣	تزكيـة اللـه للمسـلميـن
٥٦	الباب الثانى : الاسلام وحرية العقيـدة .
٦١	الفصل الأول : الحرية المطلقة فى اختيار العقيدة
٧٦	الفصل الثانى : حرية الاعتقاد ونفى الاكـراه
٨٧	الفصل الثالث : حرية الاعتقاد مع الترغيب والترهيب
٩٧	الفصل الرابع : حرية الاعتقاد مع بيان استغنـاء الخالـق .
١٠٩	الفصل الخامس : حرية الاعتقاد وبيان مهمـة الرسول وتأمين المخالـف .
١١٥	سـؤال غيـر لطيـف
١١٨	حريـة الاعتقاد و تأميـن المخالـف
١٢٤	الباب الثالث : المثاليـة فى الاسـلام

رقم الصفحة	الموضوع

